الدوافع والأهداف للشعراء في العصرين الإسلامي والأموي

د. صابر أحمد عبد الحافظ
مدرس الأدب والنقد بالكلية

الشعر عند العرب كلما هو عند الأغريق القدماء(١) الهام من قوى غير منظورة ، فكل شاعر رئى أو (ردف) يلهمه الشعر أو شيطان يوسوس في خلده بأعزب الألحان فيستقى شعره من مصادر غامضة من تلك القوى غير المنظورة ، حيث هى مصدر سحره وتأثيره في الناس .

فالشعر يستمد غموضه من مصدره الخفى ، فلا تعرف طبيعته أو أسبابه ، ولا يهم تفسير جماله وسحره ، وان عرف بتأثيره ومضائه.

وقد ذكر الشعراء العرب شياطينهم ، وأقر كثير منهم أن قوة الشاعرية لديهم تصدر عن هذه الكائنات الخفية الملهمة(٢) .

---

(١) انظر مواقف في الأدب والنقد ص ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ١٣٦ ، ١٣٨ .

يقول الأعشى ذاكرا شيطانه مسجلا :

وما كنت ذا خـوف ولكن حسبتنى
اذا مسحل يسدى لى القول أفـرق

شريكان فيما بيننا من هـوادة
صـفيان أنس وجـن موفـق

يقـول فلا أعيـا بقـول يقـوله
كفـانى لاعن ولا هـو أخـرق(٣)

ويقـول :

حبانى أخى الجنى نفسى فـداؤه بأفيح جياش العشيات مرجم(٤)

ويذكر عويف القوافى(٥) أن ردفة من الجن ، قد دعا القـوافى فاجبنه وانثلن عليه وكأنها مخلوقات حية .

دعاهن ردفى فارعـوين لصـوته
كما روعت بالجوت الظماء الصواديا(٦)

ويقول الفرزدق معللا جمال قصائده :

كأنهـا الذهب العتيـان حبرها لسان أشعر خلق الله شيطانا(٧)

---

(٣) جمهرة أشعار العرب ص ٦٢ .

(٤) الحيوان ٦/٢٢٥ .

(٥) عويف بن معاوية وقيل ابن عقبة من غطفـان ، شاعر فحل من شعراء الدولة الاموية من ساكنى الكوفة،أضيف عويف الى القوافى لقوله :

سأكذب من قد كان يزعم أننى اذ قلت قولا لا أجيد القوافيا

الخزانة ٦/٣٨٤ .

(٦) الخزانة ٦/٣٨٢ يقال للبعير : جوت،جويت : اذا دعوته الى الماء.

(٧) الحيـوان ٦/٢٢٧ .

ولكن أعشى سليم لا يرى شيطان الفرزدق الأمثل فى الانام فيقول :

وما كان جنى الفرزدق قندوة
وما كان فيهم مثل فحل المخبل

وما فى الخوافى مثل عمرو شيخه
ولا بعد عمرو شاعر مثل مسحل(٨)

أما أبو النجم الراجز فيرى أنه غطى على الشعراء الفحولة شيطانه فيقول :

انى وكل شاعر من البشر
شيطانه أنثى وشيطانى ذكر

فما رآنى شاعر الا استتر
فعل نجوم الليل عاين القمر(٩)

وقال صبى بدوى(١٠) :

انى وان كنت صغيرا سنى وكان فى العين نبو عنى
فان شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن
حتى يزيل عنى التظنى(١١)

---

(٨) المصدر السابق ٦/٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٩) الحماسة البصرية ١/٨٠ .

(١٠) فى الوحشيات ، ص ١١٩ هو أمية بن كعب . ويقول محقق الخصائص ١/٢١٧ هامش انه مالك بن أمية كما فى الوحشيات ولم تذكر الوحشيات هذا الاسم .

(١١) الخصائص ١/٢١٧ ، وردت الاشطار الاربعة الاولى مع اختلاف فى الوحشيات ص ١١٩ وكذلك فى الزاهر ١/١٩٧ ، ربيع الابرار ٣/٤٦٠

ويقال للشعر « رقية » الشيطان لما فيه من السحر والتأثير ، فيعجب جرير أن تلك الرقى وهى أشعاره فقدت تأثيرها فى عمر بن عبد العزيز .

رايت رقى الشيطان لا تستفزه وقد كان شيطانى من الجن راقيا

ويرى أحد الشعراء أنه اذا رام قول الشعر أطلعته الجن على أشعارها فيصطفى منها ما يريد بعد أن يوردها عليه شيطانه :

وكنت اذا ما أردت القريض تخبرنى الجن أشعارها
أرومن صعاب قوافى القريض حتى تذل فأختارها
قوافٍ يوردها صاحبى الى وأكفيه اصدارها(١٢)

واذ أن جريرا يدعى انه اشعر الشعراء فلابد ، اذن ، أن يكون شيطانه قد اكتمل ونضج ، فهو أكبر أقرانه من الملهمين :

وانى ليلقى على الشعر مكتمل من الشياطين ابليس الابالبس(١٣)

ولكن الشعر ، مع ذلك ، تعبير الشاعر عن ذات نفسه ومصور شخصيته وحقيقته ومن أجل هذا يأتى مختلفا باختلاف الشعراء من بنى الإنسان ، وهو يخطى ويصيب كمواقع النبل ، يقول معقر بن حمار البارقى(١٤) :

---

(١٢) الأشباه والنظائر ٢/١٤٩ .

(١٣) ربيع الابرار ١/٣٨٤ .

(١٤) شاعر جاهلى وهو صاحب البيت المشهور :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما عينا بالاياب المسافر

وسمى معقرا لقوله فى قصيدة مشهورة :

لكنها ناهض فى الوكر قد مهدت له كما مهدت للبعل حسناء عاقر

الشعر لب المرء يعرضه والقول مثل مواقع النبل
منها المقصر عن رقيته ونوافذ يذهبن بالخصل (١٥)

وهو دليل الفوائد كقول الأخطل :

ان الكلام من الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلا(١٦)

وأشعر بيت ما كان صادقا فى تصوير النفس أو الحال أو تجاوب الحياة • لأن الشعر هو المعبر عن شخصية المرء ودخيلة نفسه • يقول بقيلة الأنصجعى(١٧) شاعر اسلامى •

وينسب أيضا الى طرفة والى حسان بن ثابت(١٨) :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا
وانما الشعر لب المرء يعرضه على المجالس ان كيسا وان حمقا

---

(١٥) الحيوان ٦٢/٣ • وفى الموشح ص ٣٥٧ • معجم الشعراء ص ٣٤٠ ينسبان الى المتوكل الليثى وفى المصون ص ١٢ من غير نسبة • وانظر الموشى ص ٢ والخصل : الغلبة فى النضال •

(١٦) البيان والتبيين ٢١٨/١ •

(١٧) المؤتلف ص٨٢،وفى التذكرة السعدية ص ٣٢٥ فى غير نسبة

(١٨) العمدة ١١٤/١ وانظر البيت الأول فى : حسان بن ثابت فى معايير النقد ، عدد المورد الخاص بالقرن الخامس عشر الهجرى ، المجلد التاسع ـ العدد الرابع ١٤٠١هـ ١٩٨١م ، ص ٣٠٧ ، وفى ديوان طرفة: ص ٢١٦ ثانى بيتين هما :

ولا أغير على الاشعار أسرقها عنها غنيت وشر الناس من سرقا
وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

وقبل ذلك رأى طرفة بن العبد أن الشعر قد يوغل فى خبايا تعجز الابر على دقتها عن الولوج فيها ، يقول :

رأيت القوافى يتجلن موالجا تضايق عنها أن تولجها الابر(١٩)

وقد يمت الى ما سبق بسبب ما يمكن أن نسميه بدواعى الشعر الملهمة .

ويذكر القارىء القول القديم الذى ينسب الى عنترة وهو :

هل غادر الشعراء من متردم(٢٠)

فقد أفنى الشعراء ، فى رأيه ، موضوعات الشعر ، فلم يبق شىء لم يقل فيه الشعر شعرا ، وتلك خاطرة عجيبة تطرق ذهن الشاعر المطبوع عنترة .

ولو جاءت من شاعر صغير ما أثارت العجب . فالشاعر المطبوع تلهمه الحياة ، ولا حد لموضوعاتها . وكل شىء لدى الشعراء الأصلاء المطبوعين موضوع يصلح للشعر وليس الشعر فى حقيقته موضوعا وانما هو شاعرية تعبر عن نفسها فى موضوع .

ولا نفاد لصور الحياة التى تصلح للتعبير عن الشاعرية ، ولا لحوادثها التى هى الحياة ذاتها . وفى ظنى أنه أراد الشعر الأصيل « الآبد » كما يعبر عنه فى القديم ، فلما بخلت عليه ساعة النظم وندت منه الشكوى ، ولو أراد شعرا غير أصيل لوجد

---

(١٩) حلية المحاضرة ١/٢٥٧ .

(٢٠) الشعر والشعراء ١/١٧٣ .

حواليه ما يقوله فيه أسرع فلاذ بالموضوع « التقليدى » الذى كان الشعراء يطرقونه ، فرارا مما هو فيه ، فلعل الموضوع « التقليدى » يقدح فيه الشاعرية التى لو قدحت لعبرت عن ذاتها تعبيرا أصيلا آبدا، فيما تريد التعبير عنه ، ذلك الموضوع « التقليدى » هو رسوم دار الأحبة التى لا تكاد تبين : فقال :

أم هل عرفت الدار بعد توهم

فها أنت ذا ترى أن نفاد الموضوعات الشعرية الذى عبر عنه فى تساؤله فى صدر البيت وعجزه عن أن يطرق مالم يطرقه الشعراء قبله ، ألجأه الى عجز البيت ليجد فيه نقطة البدء ، التى كثيرا ما ابتدأ الشعراء منها .

ويرى لبيد أن الشعراء لا يجرون الا فى طريق التقليد :

والشاعرون الناطقون أراهم سلكوا طريق مرقش ومهلهل(٢١)

وأكثر الشعراء لا يرون الشعر الا موضوعاته الملهمة ، فان فنيت فنى الشعر وجفت ينابيعه ، وما يأتى الشاعر بشعر الا أن تكون أمور ملهمة وأعمال ناطقة يترجم عنها الشاعر ما يريد فى قوافيه وأناشيده .

فقد قال سويد بن صميع المرثدى ، من بنى الحارث(٢٢) أو غيره(٢٣) لبنى عمه أن يتركوا التفاخر بالشعر لأنهم قصروا بصحراء

---

(٢١) البيان والتبيين ٢/١٨٣ .

(٢٢) شرح حماسة أبى تمام ١/١٢٤ عن البرقى واعجاز القرآن ص ٧٩ أو سويد المرائى الحارثى كما فى البيان والتبيين ٢/١٨٦ .

(٢٣) الشميذر الحارثى ، كما فى شرح حماسة أبى تمام ١/١٢٤ ، واعجاز القرآن ص ٧٩ والمثل السائر ٣/٧٤ .

الغمير (أو الفهيم) (٢٤) ولم يبلوا فيها فى القتـــال فتنطلق السنتهم لدى المساجلة وتستجيب قوافى الشعر لهم ان أرادوا نظمها .. لأنهم أماتوا قوافى الشعر هناك فى ميدان القتال ، ودفنـــوها بتقصرهم فى المناجزة ، بسوء بلائهم وقبح آثارهم(٢٥) .

يقـــــول :

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما دفنتم بصحراء الغمير القوافيا(٢٦)

ويذكرنا هذا بقول أحد الشعراء :

وقافيـــة قيلت لكم لم أجـــــد لهـــا
جوابا اذا لم تضربوا بالمفاصل(٢٧)

وقال عمرو بن معديكرب :

فلو أن قـــومى أنطقتنى رماحهم نطقت ، ولكن الرماح أجرت(٢٨)

وقد تجد شكوى فناء الشعر لغياب موضوعه فى مثل قول صخر ابن الجعد الخضرى وقد تزوجت ملهمته « كأس » من آخر :

ألا يا كأس قد أفنيت شـــعرى فلست بقائل الا رجيعا(٢٩)

---

(٢٤) البيان والتبيين ٢/١٨٦ .
(٢٥) انظر تعليق المرزوقى فى شرح أبى تمام ١/١٢٤ .
(٢٦) شرح حماسة أبى تمام ١/١٢٤ واعجاز القرآن ص ٧٩ .
(٢٧) البيـــان والتبيين ١/٢١٤ .
(٢٨) يقول قومى لم يطعنـــوا بالرماح فأثنى عليهم ، ولكنهم فـــروا فأسكت كالجر الذى فى فمه الجرار . البيان والتبيين ١/٢١٤ .
(٢٩) الاغانى ٢٢/٣٦ .

أما حسان بن ثابت فيرى أن سمو شعره كان بسبب موضوعه وهو مدح الرسول ﷺ ، يقول :

ما أن مدحت محمدا بمقالتي لكن مدحت مقالتي بمحمد (٣٠)

وأخيرا يرى نصيب أن ما يفتح القول بعد تغلق دروبه هو مدح أمير المؤمنين ، فمدحه موضوع يلهم الشعر ويسهل القول :

اذا اعتاص القريض فامدح أمير المؤمنين تجد مقالا (٣١)

ان الشعر يخلق واقفا أمثل (٣٢) وتجد ذلك كله متناثرا في أقوال النقاد العرب ولا سيما الشعراء منهم ، وان جاء في كثير من الأحيان في معرض الفخر والادعاء بالشاعرية الفذة وقوة تأثيرها في أشعارها ، أو قهرها لخصومها الشعراء ، من غير أن تنتظمه نظرية محددة ، تجد هذا عند كثير من شعراء الجاهلية ، وشعراء العصرين الاسلامي والأموي ، فقد قال زهير بن أبي سلمى في معرض تأثير الشعر وتلقي الناس له :

فابلغ ، ان عرضت لهم رسولا بني الصيداء ان نفع الجوار (٣٣)

بأن الشعر ليس له مرد اذا ورد المياه به التجار

---

(٣٠) المثل السائر ١/١١٧ .

(٣١) الشعر والشعراء ١/٢٦٥ ، ومما يتصل بموضوع الشعر الملهم ما روى من أنه « قيل لنصيب » هرم شعرك ، قال : لا والله ما هرم ، ولكن العطاء هرم ، ومن يعطيني مثلما أعطاني الحكم بن المطلب ... » الاغاني ١/٣٦٦ .

(٣٢) انظر مواقف في الادب والنقد ، ص ١٤٦ — ١٤٩ .

(٣٣) شعر زهير بن أبي سلمى ص ٩٢ .

وقال ، وفيه ، أيضا ، انه يمنع الركبان فيتأسدونه فى سفرهم :

أولى لهم ، ثم أولى ، أن تصيبهم ... منى بواقر لا تبقى ولا تذر
وأن يعلل ركبان المطى بهم ... بكل قافية شنعاء تشتهر (٣٤)

وقال :

ألمى سترحل بالمطى قصائدى ... حتى تحل على بنى ورقاء
يتوارثون بقاءها مدحا لهم ... وهن لآخرهم بطول بقاء (٣٥)

وقال المسيب بن علس(٣٦) :

فلأهدين مع الرياح قصيدة ... منى مغلفة الى القعقاع
ترد المياه فلا تزال غريبة ... فى القول بين تمثل وسماع (٣٧)

ففى هذين البيتين الأخيرين يصف الشاعر أنه سيهدى قصيدة غريبة أى فريدة أصيلة ، سريعة التنقل بين الناس والتغلغل فيهم ، يتمثل بها « المتلقون » لغرابتها وقد يمكن ترجمة «التمثل» و «السماع» فى المصطلح النقدى الحديث بالتعليم والمتعة وقال الأعشى :

---

(٣٤) المصدر السابق ص ٩٥ .
(٣٥) حلية الحاضرة ١/٤٢٣ .
(٣٦) اسمه زهير بن علس ، جاهلى ، خال أعشى قيس ، وكان الأعشى راويته ولقب المسيب ببيت قاله هو :
فان سركم الاتئوب لقاحكم ... غزارا فتولوا للمسيب يلحق
انظر الشعر والشعراء ١/١٠٧ وما بعدها .
(٣٧) حلية المحاضرة ١/٤٢٣ .

وان عتـــاق العيش ســـوف يزوركم
ثنـــاء على أعجـــازهن معـــلق
به تنفض الأحـــــلاس فى كل منزل
وتعقد أطراف الحبال وتطرق(٣٨)

وقال عنترة بن عكرمة الطائى :

ألم تر أن شـــعرى ســـــار عنى وشعرك حول بيتك لا يسير(٣٩)

وقال بشر بن حجام العبسى :

وانى لقـــــوال لكـــل غريبـــــة
لذيذ بأفـــواه الرواة عســـــيرها

شرود اذا غث النشـــيد كأنهـــا
سنى البرق يلوى بالرواة بشيرها(٤٠)

وقد يكون الشعر سببا فى السخاء يقول الأعشى :

والشعر يستنزل الكريم كما تنزل رعد السحابة المطرا(٤١)

وأجمل ما قيل فى الشعر الممتع المفيد قول تميم بن أبى مقبل :

---

(٣٨) حلية المحاضرة ١/٤٢٤ .
(٣٩) المؤتلف والمختلف ، ص ٢٢٦ ، وعكرمة شاعر جاهلى فارس. محسن المؤتلف ص ٢٢٦ .
(٤٠) حلية المحاضرة ١/٤٢٤ ـ ٤٢٥ .
(٤١) العمدة ١/٢٨ .

فتميم(٤٢) هنا الشاعر المتفرد الذى يقول ما هو أطب للنفس وأنجع، وهو أكثر الشعراء بيتا جيدا سائرا ، هذبه حتى صار ما ينطبق عليه الآن وصف السهل الممتنع ، أما البيت الثالث فعجيب فى روعته ، فقد وصف فيه شعره بالجمال الواضح والتفرد العجيب ، تجسد بجماله وغرابته فراح الناس يمسحون وجهه تدليلا له واعجابا به وبتفرده ، كما تمسح أيدى الناس الجواد الأغر المشهر .

قال تميم :

اذا مت عن ذكر القوافى فلن ترى
لها تاليا مثلى أطب وأشعرا

وأكثر بيتا ماردا ضربت له
حزون جبال الشعر حتى تيسرا(٤٣)

أغر غريبا يمسح الناس وجهه
كما تمسح الأيدى الأغر المشهرا

وقال تميم أيضا ، وهو يمدح قوة شعره وجدته فى الخصومة ، وهى فائدته وهدفه ، انه يملك من شاعريته الداهية القاتلة التى لو اطلقها لوجدت الهامها من الجن :

بنى عامر ما تأمرون بشاعر
تخير بابات الكتاب هجائيا

---

(٤٢) شاعر مخضرم - من المعمرين ، عاش دهرا فى الجاهلية ، ثم أدرك الاسلام فأسلم ، مات أيام معاوية .
انظر مقدمة ديوان ابن مقبل ص ٥ وما بعدها .

(٤٣) ديوان ابن مقبل ص ١٣٦ ، وانظر الامالى الشجرية ١/٧٢ .

أأعفو كما يعفو الكريم فانني
أرى الشغب فيما بيننا متماديا

أم أغمض بين الجلد واللحم غمضة
بميرد رومى يقط النواصيا

فأما سراقات الهجاء فإنها
كلام تهاداه اللئام تهاديا

أم أخبط خبط الفيل هامة رأسه
بحرد ، فلا يبقى من العظم باقيا

وعندى الدهيم لو أحل بمتالها
فتصعد لم تعدم من الشعر حاديا(٤٤)

وأكثر ما يمدح الشاعر به شعره : التفرد ويعبر عنه بالقرابة وأنه آبد شرود غير مألوف يعير عن تأثيره في الجمهور بسرعة انتقاله بين القبائل وامعانه في الآفاق :

يقول الحصين بن الحمام « مخضرم » :

وقافية غير انسية قرضت من الشعر أمثالها
شرود تلمع بالخافقين اذا أنشدت قيل : من قالها(٤٥) ؟

---

(٤٤) ديوان ابن مقبل ، ص ٤١٠ - ٤١٢ ، وانظر العمدة ١٦٨/٢ والدهيم : اسم ناقة الزبان الذهلى وهو تصغير دهما فى الأصل ، وكان كثيفا بن عمرو التغلبي قتل عمرو بن الزبان واخوته ، وجعل وسم فى مخلاة وعلقها فى عنق ناقة لهم يقال لها الدهيم ، فجعلت العرب حمل الدهيم مثلا فى الدواهى العظام ، ديوان ابن مقبل ، ص٤١٣ هامش (١٣).

(٤٥) الاغانى ١٤/٤١ .

ويشير حميد بن ثور « شاعر اسلامى مجيد » الى أن قصائده تمتع الرواة والسحار وتشهر الخصوم (التشهير هو فائدتها) يقول :

قصائد يستحلى الرواة نشيدها
ويلهو بها من لاعب الحى سامر
يعض عليها الشيخ ابهام كفه
ويخزى بها أحياؤكم والمقابر (٤٦)

ويقول جرير :

وانى لقوال لكل غريبة ... ورود اذا السارى بليل ترنما
خروج بافواه الرواة كأنها ... قرى هندوانى اذا هز صمما (٤٧)

ويقول :

وانى لهاجيهم بكل غريبة ... شرود اذا السارى بليل ترنما
غرائب ألافا اذا حان وردها ... أخذت طريقا للقصائد معلما (٤٨)

ويقول ذو الرمة :

فأصبحت أرميكم بكل غريبة ... تجد الليالى عارها وتزيدها
قواف كشام الوجه باق حبارها ... اذا أرسلت لم يبق يوما شرودها
توافى بها الركبان فى كل موسم ... ويجلو بأفواه الرواة نشيدها

---

(٤٦) الأمالى الشجرية ١/٣٢٤ ، الحماسة البصرية ٢/٢٧٤ .
(٤٧) نقائض جرير والفرزدق ١/٦٢ .
(٤٨) نقائض جرير والفرزدق ١/٦٣ ، المثل السائر ٣/٧٥١ .

ويقـول كثير :

والا يعتنى المـوت والمـوت غالب
لـه بشرك مبثـوثة وحبـائل
أحبر له قـولا تناشـد شـعره
اذا ما التقت بين الجبال القبائل
وتصدر شتى من مصب ومصـعد
اذا ما خلت ممن يحـل المنـازل
يفنى بها الركبان من آل يحصب
وبصرى وترويه تميـم ووائل(٤٩)

أما النجاشى(٥٠) فيوعد بنظم قصيدة كأنها عقرب لها حمة تلسـع بها ، وأنها من السهل الممتنع :

سأنظم من حر الكلام قصيدة لها حمة فانظر على من أريقهـا
يجذ لسـان المرء منطقـه بهـا وان رامها كانت غليظا طريقها(٥١)

---

(٤٩) الاشـباه والنظائر ١/٢٢٧ .

(٥٠) النجـاشى : هو قيس بن عمرو بن مالك من بنى الحارث بن كعب ، شاعر الامام على رضى الله عنه فى صـفين ، عرف بهجـائه المحض ، وشربه الخمر وهو القائل فى معاوية :

ونجى ابن حرب سـابح ذو غلالة أجشى هزيم والرماح دوانى

وهو شاعر مجيد مطبوع . الشعر والشعراء ١/٢٤٦ وما بعـدها وانظر وقعة صفين لنصر بن مزاحم وشرح نهج البلاغة .

(٥١) حليـة المحـاضرة ١/٤٢٦ .

ويذكرنا هذا بقول بشار :

تزل القوافى عن لسانى كأنهـا حمات الأفاعى ريقهن قضاء(٥٢)

ويصف الأحوص ما يرمى به خصمه (ابن حزم) انه شعر قاطع خالد تبنى الحجارة ، وبيقى بناؤه يتمثل به ، ويلهو السامرون وركبان المفاوز بانشاده فهو رام له :

بقافية تبلى الحجـارة والذى يشـيد منهـا قائم يتمثـل
ويقطع ركبان الفلاة بها الفلا ويلهو بهـا فى السـامر المتعلل
يكاد اذا يرمى البـذى بمثلهـا عن العظم منه لحمـه يتبزل(٥٣)

ويصف الفرزدق قوة شاعريته اذا اسرعت الركبان بها اجحـرت الشعراء وأقعت كما تقعى الكلام للأسد :

واذا القصائد أوضعت ركبانها بالغـور وهى حمـرة التحبير
علمت هوازن أنه قـد غـرها شـعراؤها وغواتهـا بغـرور
نبحت كلاب الجن لما أجحرت فـرقا لدى متبهنس مضـبور
لمـا رأين صلابة فى رأسـه أقعين ثم صأين بعد هرير(٥٤)

ويذكر الأصم الباهلى (من العصر الأموى شعره وكان يهـاجى الفرزدق)(٥٤) شعره بأنه :

منه غرائب أمثـال مشـهرة ملمومة زانها وصفى واحكامى(٥٥)

---

(٥٢) الحيـوان ٤/٢٦١ .
(٥٣) حلية المحاضرة ١/٤٢٣ .
(٥٤) نقائض جرير والفرزدق ٢/٩١٤ - والمتبهنس المتبختر - وكلاب الجن : الشـعراء .
(٥٥) حلية المحاضرة ١/١٢٦ ، ٤٢٤ .

ومن طـريف ما يتصـل بصـدد من هـذا ما جـاء عن الرياش و « الأصمعى » من تشبيه أعرابى للشعر بالبعير الذى يتجرر(٥٦) ، وأنه بالغ فى طرده حتى استخرج منـه أجـود ما عنـده وتركه وكأنه صعارير صمغ ليس فيه ما يعذب ، أى استخرج منه خير ما فيه وتركه وما فيه شىء يطلب يقول له هذا الأعرابى :

انى بغيت الشعر حتى وجدته بأسـفل واد باركا يتجـرر
فطردته فى الشعب حتى كأنه صعارير صمغ ليس فيهن مغفر(٥٧)

أما ابن هرمة فصائغ ماهر ، ولكنه لا يصوغ الحـلى بل الكلم ، وهو يشير بهذا الى جمال شعره الذى يصوغه زينة كما تصاغ الحلى ، وشعره ، لهذا السبب ، ثمين نفيس وممتع ، وهـو ان طـوق به خصما فلا سبيل الى زواله :

انى امـرؤ لا أصـوغ الحلى تعمله
كفـاى لكن لسـانى صـائغ الكلم
انى اذا ما امـرؤ خفـت نعـامته
فى الجهل واستحصدت منى قوى الوذم
عقـدت فى ملتقى أوداج لبتـه
طوق الحمامة لا يبلى على القدم(٥٨)

---

(٥٦) من الجرة : أى يجتر ، أو من الجرجرة صوت يردده البعير .

(٥٧) ذيل الآمالى ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ،وانظر فيه الهامش ٢ ص٢٦٤ .وصعرورة الصمغ فأطال ودق منه ملتويا ولا خير فيه . ليس فيهن مغفر أى ما يعذب فان المغافر أحلى أنواع الصمغ .

(٥٨) حلية المحاضرة ١/٤٢٥ .

وأخيرا ، يذكر شاعر أنه سيحمل مخاطبه من شعره على فرس مأمون عجيب ، سريع كالريح فيأتي به الصين في يوم وليلة وهو تصوير رائع في رواج شعره وتأثيره في الناس وسرعة انتقاله بينهم :

لأحملنك من شعري على فرس
من المذنبة مأمون على الزلق

يأتي بك الصين في يوم وليلة
كالريح يأتي على مكران والسلق (٥٩)

ويقول مروان بن أبي حفصة وهو يصنع من قصائده خيلا جامحة:

اني أقول قصائدا جوالة
أبدا تجول خوالعا أرسانها

من كل قافية اذا جربتها
جمحت فلم تملك يداي عنانها

سادت بيوتي في البلاد فأمعنت
وبيوت غيري لم ترم أوطانها (٦٠)

---

(٥٩) الأشباه والنظائر ٢٢٨/١ ـ ومكران دلابة بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبها والهند في شرقيها ـ معجم البلدان « مكران » والسلق جبل عال مشرف على التراب من أعمال الموصل معجم البلدان « السلق » .

(٦٠) حلية المحاضرة ١٢٥/١ . الاشباه والنظائر ٢٢٦/١ ، جربتها أو اجربتها » .

ويقول بشار :

ومثلك قد سيرته بقصيدة
فساد ولم يبرح عراقى المنازل
رميت به شرقا وغربا فأصبحت
به الأرض ملأى من مقيم وراحل(٦١)

وتجد فى شعر الملاحم ، أيضا أن الشاعر يصف قصائده بأنها آبدة ، وهى صفة تعنى أنها نافرة متوحشة لا يستطيع الشعراء أن يذللوها ، أى أنهم غير قادرين على الاتيان بمثلها فهى تستعصى وتتمرد على أمثالهم . وذلك وصف يكثر بين الشعراء ويعنى فيما يعنى الأصالة والتفرد .

فحين مدح كعب بن زهير شاعريته وشاعرية الحطيئة بقوله :

ثمن للقوافى شانها من يحوكها اذا ما ثوى كعب وفوز جرول(٦٢)

اعترضه فرود بن ضرار ، أخو الشماخ ، وكان شديد المعارضة كثيرها فقال :

مررت على كعب فخلت أوابدى
أوابد تعلو فوق كعب وجرول
فهل خضت بحرا قصر الناس دونه
من الشعر أم هل قلت مالم تقول(٦٣)

---

(٦١) الاشباه والنظائر ١/٢٢٦ .

(٦٢) الخزانة ٢/٤١٤ ، وشرح ديوان كعب بن زهير ص ٥٩ .

(٦٣) طبقات فحول الشعراء ١/١٠٥ - ١٠٦ .

وقد تفنن الشعراء فى هذا الشأن كثيرا فقد يفتخر الشاعر بأنه يحبر شعره ، أى يحسنه ويزينه ، ويتنخله : أى يصطفيه ويختاره ، ولكنه ينفى عنه ، مع ذلك ، صفة التصنع والتعمل ، فكعب يستطرد ، بعد بيته السالف الذكر ، فيذكر تهذيبه و (الحطيئة) للشعر من غير أن ينسى تنخله تنخلا لا تلقاه عند شاعر آخر :

يقول فلا يعيا بقول يقوله
ومن قائليها من يسىء ويعمل

يقومها حتى تقوم متونها
فيقصر عنها كل ما يتمثل

كفيتك لا تلقى من الناس شاعرا
تنخل منها مثل ما أتنخل(٦٤)

وقد يجد قول الكميت مكانا مناسبا هنا ، لصلته بما قبله ، وتصويره لسمات قصائده كما يراها وأن القوافى بعد كعب والحطيئة لم ترزأ بشىء بفضل وجوده :

فدونك مقربة لا تساط كرها بسوط ولا تركل
مهذبة لا كقول الهذاء ممن يسيىء ومن يعمل
وما ضرها أن كعبا ثوى مغوزا من بعده جرول(٦٥)

وقد يحسن هنا أن نذكر أبيات الأصم الباهلى ، وهى أبيات عجيبة فى وصف ما يمكن أن يكون « المثل الأعلى » فى الشعر عند العرب :

---

(٦٤) شرح ديوان كعب بن زهير ٥٩ - ٦٠ .
(٦٥) حلية المحاضرة ١/١٢٦ ، ١/٤٢٤ .

فالشعر العربى المختار : هو المهذب المبرأ من العيب والذم الذى يغترف من شاعرية خصبة ثرة ويشتمل على الأصل الرائع ، ويتمثل به الناس ويزينه الوصف والاتقان :

القى قذى الشعر عنه حين أبصره ... فما بشعرى من عيب ولا ذام
كأنما أصطفى شعرى وأغرقه ... من لج بحر غزير زاخر طام
منه غرائب أمثال مشهرة ... ملمومة زانها وصف واحكام(٦٦)

تجد لدى الشعراء أمثلة تفيد تهذيبهم شعرهم والدافع اليه والهدف منه وانتقاءهم أبيات قصائدهم ونسجها نسجا محكما حتى لو أمكن أن يلبس الشعر للبسه الناس لجماله وأحكامه ، مع ذكر من قبل من سمتى الامتاع والتعليم ، أحيانا ، فيه . يقول ابن ميادة :

فان أهلك فقد أبقيت بعدى ... قوافى تعجب المتمثلينا
لذيذات المقاطع محكمات ... لو أن الشعر يلبس لارتدينا(٦٧)

يقول أيضا :

نعم أننى مهد ثناء ومدحة ... كبرد اليمانى يربح البيع تاجره(٦٨)

يقول عدى بن الرقاع العاملى :

وقصيدة قد بت أجمع بينها ... حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته ... حتى يقيم ثقافة متآدها

---

(٦٦) ديوان المعانى ص ٨ .
(٦٧) البيان والتبيين ١/٢٢٢ .
(٦٨) الشعر والشعراء ، ٢/٥٢٦ والبيان والتبيين ، ٣/٢٤٤ والحيوان ٣/٦٤ .

يقول النابغة الشيبانى :

قومت منها فلا زيـغ ولا أود كما أقام قنا الخطى تثقيف(٦٩)

يقول ذو الرمـة :

وشعر قد أرقت له غـريب أجنبـه المسـاند والمحـالا
فبت أقيمـه وأقـد منـه قوافى لا أعدلها مثـالا(٧٠)

يقول جرير ويذكر خلوص شعره من عيوب النظم :

فلا اقـواء اذ مـرس القوافى بأقواه الرواة ولاسنادا(٧١)

وكذلك السيد الحميرى :

وان لسـانى مقـول لا يخـونني
وانى لمـا آتى الأمـر متقـن
أحـوك ولا أقـوى ولسـت بلاحن
وكم قائل للشعر يقوى ويلحن(٧٢)

ويذكر طريح بن اسماعيل الثقفى أنه ينظم القصيدة نظم قـلادة الـدر والذهـب :

يقودنى الود والاخـلاص بمخترمى
من أبعـد الأرض حتى منزلى كتب

---

(٦٩) الاغانى ٣١٣/٩ معجم الشعراء ص ٦٧ ، والموشح ، ص ٣ واعجاز القرآن ص ١٢٢ ديوان النابغة الشيبانى ص ٥٤ .

(٧٠) ديوان ذو الرمة ، ص ٤٤٠ ـ ٤٤١ والموشح ص ٣٠ .

(٧١) الموشح ، ص ٤ والسناد : اختـلاف كل حركة قبـل الروى والاقواء : اختلاف الروى .

(٧٢) الموشـح : ص ٣ .

وحوكى الشعر أصفيه وانظمه
نظم القلادة فيها الدر والذهب(٧٣)

ويذكر هذا بقول شاعر جاهلى هو امرؤ القيس بن بكر بن امرىء القيس بن الحارث ... وفيه صورة عجيبة تعبر عن نفسها بلا تعليق :

أذود القوافى عنى ذيادا ذياد غلام جرىء جرادا
فلما كثرن وأعيينني تنقيت منهن عشرا جيادا
فأعزل مرجانها جانبا وآخذ من درها المستجادا(٧٤)

أما سويد بن كراع العكلى (شاعر مخضرم) فقد شبه القوافى (ويعنى بها هنا أبيات الشعر) بسرب من حيوان الوحش الآبد « وراح بعد ذلك يعالج هذه الصورة الفريدة معالجة الصانع الماهر » ثم ذكر أنه اكب على تهذيبها عاما وبعض العام وود لو أطال فى تهذيبها يقول سويد(٧٥) :

أبيت بأبواب القوافى كأنما
أصادى بها سربا من الوحش نزعا
أكالئها حتى أعرس بعدما
يكون سخيرا أو بعيدا فأجمعا
عواصى ألا ما جعلت أمامها
عصا مرد تغشى نحورا وأذرعا

---

(٧٣) الحماسة البصرية ٢/٢١ .

(٧٤) المؤتلف ص ٦ ، العمدة ١/٢٠٠ مع اختلاف ويروى الشاعر كان يقال له الفرائد لقوله هذا .

(٧٥) مواقف فى الادب ١٩٧ .

أهبت بغر الآبدات فراجعت
طريقا أملته القصائد مهيعا

بعيدة شأو لا يكاد يردها
لها طالب حتى يكل ويظلعا

اذا خفت أن تردى على رددتها
وراء القوافى خشية أن تطلعا

وجشمنى خوف ابن عفان ردها
فثقفتها حولا حريدا ومربعا

وقد كان فى نفسى عليها زيادة
فلم أر الا أطيع وأسمعا(٧٦)

ويذكرنا الزمن الذى استغرقه سويد فى تنقيح شعره بقوله الآخر:

وبات يدرس شعرا الأقران له قد كان نقحه حولا فما زادا(٧٧)

أما الراعى فزعيم بقول قصيدة مهذبة سائرة يصعب على المنافس أن يأتى بمثلها قصيدة يكثر انشادها فى المواسم والأسواق :

غانى زعيم أن أقول قصيدة محبرة كالنقب بين المخارم

---

(٧٦) البيان والتبيين ٢/١٢ ، الشعر والشعراء ٢/٣٥ وأصادى : أخاتل ، ونزع : جمع وهو الغريب ، أكالئها : أراقبها ، والتعريس: النزول فى السحر ـ المربد : محبس الابل ، أهبت بها : دعوتها ، الآبدات المتوحشات ، أملته : سلكته ، والمهيع الطريق الواسع .

(٧٧) البيان والتبيين ١/٦٨ .

خفيفة أعجـاز المطى ثقيـلة على قرنها ، نزالة بالمواسم(٧٨)

وما دمنا بصدد تحبير الشعر وتهذيبه ، فلابد أن نذكر هنا في مقابل الصقل والاعداد نقدا منظوما فيه مـدح للخطيب المرتجـل واجـادته الخطبة ، بداهة من غير اعداد وتهذيب سابق .

ففي موقف في آخر العصر الأموى تبارى خطباء في حفل جامـع عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والي العراق ، وهم خالد بن صفوان ، وشبيب بن شيبة والفضل بن عيسى وواصل بن عطاء وتناوبوا القـول على المنبر على هذا النظام ، فانتزع خالد وشبيب والفضل ... اعجاب القوم انتزاعا و ... كانوا قد أعدوا خطبهم من قبل وحبروها ونمقوها . (ثم نهض واصل بخطبة مرتجلة ، تجنب فيها الراء ، فـاق اعجـاب الناس والوالي بواصل من عطاء اعجابهم بالثلاثة قبله) .

فسجل شاعران معاصران لواصل هذا الحادث تسجيلا صادقا .

أحدهما بشار قال مخاطبا واصلا :

أبا حذيفـة قـد أتيت معجبـة
في خطبة بدهت من غير تقـدير

وان قـولا يروق الخالدين معا
لمسكت مخرس عن كل تخبير(٧٩)

وقال أيضـا :

تكلف القول والاقـوام قـد حفلوا
وحبروا خطبا تاهيك من خطـب

---

(٧٨) طبقات فحول الشعراء ١/٥١٦ .

(٧٩) الخالدان : خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة .

فقام مرتجلا تغلى بداهته
كمرجل القين لما حف باللهب

وجانب الراء لم يشعر بها أحد
قبل التصفح والاغراق فى الطلب(٨٠)

وقال أيضا :

فهذا بديه لا كتحبير قائل اذا ما أراد القول زوره شهرا(٨١)

والشاعر الآخر هو صفوان الأنصارى وهو القائل :

فسائل بعبد الله فى يوم حفله
وذاك مقام لا يشاهده وغد

أقام شبيبا وابن صفوان قبله
يقول خطيب لا يجانبه القصد

أقام ابن عيسى ثم تغاه واصل
فأبدع قولا ماله فى الورى ند

فما نقصته الراء اذ كان قادرا
على تركها واللفظ مطرد سرد

فضل عبد الله خطبة واصل
وضوعف فى قسم الصلات له الشهد

---

(٨٠) نوادر المخطوطات ١/١٢٧ ـ ١٢٨ .
(٨١) المصدر السابق ١/١٢٨ .

فأقنع كل القـــوم شـــكر حبائهم
وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهـــد(٨٢)

ففى هذه الأشعار مدح للبديهة المرتجلة والكلام المرتجل فى مقابل الاعداد والتحبير ، وقد يلج الشـــعر الناقد ميـــدان التفاخر والتعصب للقبيلة والهجاء بين الخصوم ، فيفخر الشاعر بأن قومه هـــم أصحاب الابتكار فى الشعر ، وأنهم ينابيعه ، وبحره الذى منه يصدر . ولـــم ينسوا تحبير الشعر وسيورته وذيوعه وتلك سمات يكثر منها الشعراء فى مدح أشعارهم ، وتشير الى تأثير الشعر ورواجه لدى جمهور الرواة والمتلقين .

يقول ابن ميـــــادة :

فجرنا ينابيـــع الكـــلام وبحره فأصبح فيه ذو الرواية يسبح
وما الشعر الاشعر قيس وخندف وقول ســـواهم كلفـــة وتلمح

ويجيبه عقال بن هشام ، وكان شديد الرأى فى اليمن :

ألا ابلغ الرمـــاح نقض مقـــالة بها خطل الرمـــاح أو كان يمزح
لئن كان فى قيس وخندف ألسن طوال وشعر سائر ليس يتـــدح
لقد خرق الحى اليمـــانون قبلهم بحور الكلام تستقى وهى تطفح
وهم علموا من بعـــدهم فتعلموا وهم أعربوا هذا الكلاموأوضحوا
فللسابقين الفضل لا يحسدونه وليس لمخلوق عليهم تبجح(٨٣)

---

(٨٢) المصـــدر الســـابق ١٢٨/١ .
(٨٣) الأغانى ٣٠٩/٢ .

ويقـول جـرير :

ان القصائد قد جدعن مجـاشعا بالسم يلحـم نسجها وينـار
ولقوا عواصى قد عييت بنقضها ولقد نقضت فما بك استمرار
قد كان قومك يحسبونك شـاعرا حتى غرقت وضمك التيار(٨٤)

ويقول الفرزدق :

ستأتيك منى ان بقيت قصـائد
يقصـر عن تحبـيرها كل قائل

لها تشرق الأحسـاب عنـد سماعها
اذا عد فضل الفعل من كان فاعل(٨٥)

ويقول ابن هرمة فى تطبيق المفصل وأحكام اصابته ، وأنه أصابه مفاصل المعانى بشعره فبهر بذلك الأعداء :

وعميمة قـد سقت فيها عائرا غفـلا ومنهـا عائر موسوم
طبقت مفصلها بغـير حـديدة فرأى العدو غفانى حيث أقوم(٨٦)

وقد يفخر الشاعر بقوة الشعر ونفاذه وتأثيره وبقائه على الدهر عارا فى الهجاء ، وفخرا فى المديح ويبدو مفيدا هنـا أن نورد أمثـلة أخرى ، تقول الخنساء :

---

(٨٤) النقـائض ٢/٨٦٠ .
(٨٥) حلية المحـاضرة ١/٤٢٤ .
(٨٦) البيان والتبيين ١/١١١ ، وديوان ابراهيم بن هرمة ص ٢٠٥ والعميمة ـ الطويلة ويراد بها الخطبة والسهم العـائر الذى لا يدرى من رمى به .

وقافيـــة مثـــل حد السـنا ... ن تبقى ويهلك من قالهـــا
فقـــد الذؤابة من يذبـــل ... أبت أن تفـارق أوعالهـا (٨٧)

ويقول حسان بن ثابت :

لسانى وسيفى صارما كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيف فرودى (٨٨)

ويقول أيضـــا :

قـــد رامنى الشـــعراء فانقلبوا ... منى بأفوق ساقط الفصـــل (٨٩)

ويقول جـــرير :

لسانى وسيفى صارمان كلاهما ... وللسيف أشوى وقعة من لسانيا (٩٠)

ويقـــول :

أعددت للشعراء ســـما ناقعا ... فسقيت آخرهم بكأس الأول (٩١)

ويقـــول أيضـــا :

أعددت للشعراء كأســـا مـــرة ... غندى مخالطها السمام الناقع (٩٢)

وفى بقاء الشعر ، يقول الأخطل :

ابنى أمية ان اخـــذت كثيركم ... دون الأنام فما أخـــذتم أكثر

---

(٨٧) القوافى للاخفش ص ٤ وهامشها رقم ١ ، الاشباه والنظائر ٣٢٥/١ .

(٨٨) جمهرة أشعار العرب ص ٦١٥ وديوانه .

(٨٩) حسان بن ثابت ، د. احسان القصر ١٥٨ .

(٩٠) الأغانى ٣٦/٨ .

(٩١) النقـــائض ٢١٣/١ .

(٩٢) المصدر الســـابق ٢١٣/١ .

أبنى أمية لى مدائح فيكم تنسون ان طال الزمان وتذكر(٩٣)

ويقول آخر :

فان أهلك فقد أبقيت بعدى قوافى ليس يلحقها الفناء(٩٤)

ويقول آخر :

لا يفرض بموتى من تركت له
عارا الى آخر الأيام معروفا

قصائدا تترك الألباب حائرة
من شاعر لم يزل بالحذق موصوفا(٩٥)

ويقول الفرزدق وقد جاء بنو حرام بشاعرهم سنان بن سنان ، وكان هجا الفرزدق مربوطا وسألوه حفظ أعراقهم :

ومن يك خائفا فرطات شعرى فقد أمن الهجاء بنو الحرام
هم قادوا سفيههم وخافوا قلائد مثل أطواق الحمام(٩٦)

ومن أهداف الشعر أنه يمدح بكونه ينطق بالحق ، ولا يبعد عن الواقع ، بتصوير الحقائق وصورها ومسايرة المنطق الصائب ، ومجانبة التلفيق والباطل ، فخير الشعر ما وجده (المتلقى صادقا) سواء فى نقله صور الواقع أم التعبير عن بعض تجارب بنى الانسان ، أم فى مجانبة المغالطة والتزوير فى العلائق الاجتماعية وطرق العيش ، ونذكر

---

(٩٣) الحماسة البصرية ٢/٣٩ .
(٩٤) الاشباه والنظائر ١/٢٢٥ .
(٩٥) المصدر السابق ١/٢٢٥ .
(٩٦) المصدر السابق ١/٢٢٥ .

هنا قولا ينسب الى طرفة أو حسان بن ثابت أو بقيلة الأشجعى هو :

وان أشعر بيت أنت قائله بيت يقال ، اذا أنشدته ، صدقا

ويرى الأحوص (وقد قال له عمر بن عبد العزيز : قل ، ولا تقل الا حقا) أن الشعر كلام يؤلفه منطق حق أو باطل ، وانه وان كان مصيبا صادقا فعيبه كونه يبنى بناء المنازل ، أى أنه من ابداع الشاعر، ولم يكن موجودا من قبل، وابتداؤه وبناؤه ،وهو عيبه ،لأنه صورة ليس لها نظيرها فى واقع الحياة ، لا يقدح فيه ، لأنه لا يبعده عن الحق ان كان مصيبا صادقا . وخير دليل على ذلك أن الرسول ﷺ أثاب كعبا بالهنيدة « والهنيدة مائة من الابل » وتلك جائزة تفصح عن قيمة الشعر العالية واصابة الهدف النفيس ، وهو مثل الدر نفاسة وعن منزلته لدى الرسول الكريم — يقول الأحوص :

وما الشعر الا خطبة من مؤلف(٩٧)
بمنطق حق أو بمنطق باطل

فان لم يكن للشعر عندك موضع
وان كان مثل الدر من قول قائل

وكان مصيبا صادقا لا يعيبه
سوى أنه يبنى بناء المنازل

فقبلك ما أعطى الهنيدة جلة
على الشعر كعبا من سديس وبازل

رسول الاله المصطفى لنبوة
عليه سلام بالضحى والاصائل(٩٨)

---

(٩٧) الاشباه والنظائر ١/٢٢٦ .
(٩٨) ربيع الابرار ٢/١٧٩ .

وفى التعبير الصادق عن تجربة الحياة يخاطب شاعر آخر قومه - وقد قال فيهم أحد خصومهم بقصيدة قائلا : انه لم يجد جوابا لتلك القصيدة اذا لم يصدقوا فى القتال، فينطق حينئذ ، صبرا بصدق القول عن الفعال الحق ، فباطله لا يغسل أثر القول الحق الذى رماهم به الخصم :

وقافية قيلت لكم لم أجد لها
جوابا اذا لم تضربوا بالمناصل

فأنطق فى حق ولم يكن
ليرحض عنكم قالة الحق باطل(٩٩)

وفى هذا المعنى يقول عمرو بن معد يكرب :

فلو أن قومى أنطقتنى رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت

ويفتخر أعشى ربيعة أنه لا يقول الا على علم ، وهو يعرف ما يعنى ، وهذا ما فضله فى الشعر والعقل على غيره من الشعراء :

وفضلنى فى الشعر واللب أننى أقول على علم وأعرف ما أعنى(١٠٠)

ويعوذ أبو الأسود الدؤلى ، قبله ، بالله من قول مالا يعلم كالأعمى المتخبط على غير هدى :

---

(٩٩) يذكرنا هذا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم « انما الشعر كلام مؤلف فما وافق منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » العمدة ، ١/٢٧ .

(١٠٠) الاغانى ١٨/١٣٢ .

أعـوذ بالله الأعـز الأكـرم من قولى الشيء الذى لم أعلم
تخبط الأعمى الضرير الأبهم(١٠١)

وأبو الأسود هو القائل فى الشاعر الجائر عن القصد الذى يخبط كالأعشى الحاطب فى الليل المظلم :

وشاعر سـوء يهضب القول ظالمـا
كما أقتم أعشى مظلم الليل حاطب(١٠٢)

ويقول النابغة الشيبانى :

تمت قصـيدة حـق غير ذى كـذب
فى حوكها من كلام الشعر تأليف(١٠٣)

ومما يتصل بهدف الصدق وقول الحق ترفع الشاعر عن مدح اللئام من أجل المال ، مدحا لا يعبر عن مكرمة أصيلة لهم وعن التقرب اليهم بزور القول وكذبه ، أو نقد الشعراء المادحين المتملقين الذين يتوجهون ببضاعتهم الى غير الخالق العظيم ، فيزورون القول ويلفقونه وينعتون الناس بغير ما فيهم وفى هذا يقول ذو الرمة :

ولم أمـدح ، لأرضـيه بشـعرى
لئيما أن يكون أصـاب مـالا(١٠٤)

---

(١٠١) البيـان والتبيـين ١/١١٠ .
(١٠٢) البيان والتبيين ١/١١٠ .
(١٠٣) ديـوانه ص ٤٥ .
(١٠٤) الامالى الشجرية ١/١٧٦ .

ويقول عمران بن حطان أو (السيد الحميري)(١٠٥) :

أيها المادح العباد ليعطى ان لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت اليهم وارج فضل المقسم العواد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه وتسمي البخيل باسم الجواد (١٠٦)

وفى المدح الصادق الذي لا يقال حبا في المال ، ويرتفع به الشاعر على الشعراء قول السيد الحميري :

ولقد عجبت لقائل لي مرة
علامة فهم من العلماء
سماك أهلك سيدا لم يكذبوا
ان الموفق سيد الشعراء
ما أنت حين تخص آل محمد
بالمدح منك وشاعر بسواء
مدح الملوك ذوى الندى لعطائهم
والمدح منك لهم لغير عطاء(١٠٧)

واذا تركنا صدق التعبير عن الحياة وتجاربها وما يتصل بها ، فقد نجد لمحات نقدية عابرة فى بناء القصيدة وترابط أبياتها — يقول عمر

---

(١٠٥) الاول والثالث منسوبان اليه فى الابانة عن سرقات المتنبى ذيل بأسماء بعض الشعراء ص ١٨٥ .

(١٠٦) الكامل ٢/٢٠٧ — ٢٠٨ ، والاغانى ١٨/١١٩ والبيتان الاول والثالث فى ربيع الابرار ٢/٦٥٨ .

(١٠٧) أمالى المرتضى ٢/٣٤٠ هامش ١١ .

ابن لجأ التيمى فى وصف شعر خصمه بعدم ترابط أبياته وغياب الوحدة منها :

وشعر كبعر الكبش الف بينه
لسان دعى فى القريض دخيل(١٠٨)

فقد ذهب الى ان بعر الكبش يقع متفرقا . كما يقول أحد النقاد(١٠٩) ، غير مؤتلف ولا متجاور ويقول آخر :

وبعض قريض القوم أولاد علة
يكد لسان الحافظ المتحفظ(١١٠)

وقد علق الجاحظ على البيت أو نسبه الى خلف الأحمر قائلا ان الشعر اذا كان (مستكرها وكانت ألفاظ البيت من الشعر لايقع بعضها متماثلا لبعض ، كان بينها من التنافر ما بين أولاد العلات)(١١١) وقد مر بنا قول أبى الأسود الدؤلى فى الشاعر الذى يجمع شعرا غير متجانس كما يجمع الحاطب الأعشى القمامة .

ومن أقدم ما يروى فى الوراثة الشعرية ما رواه ابن الكلبى عن أبيه فقد قال « لما حضر شامة بن الغدير الموت جعل يقسم ماله فى أهل بيته وبين بنى اخوته ، فأتاه زهير قال : يا خالاه : لو قسمت لى من مالك فقال: والله يا ابن أختى لقد قسمت لك أفضل ما لك وأجزله : قال : وما هو ؟ قال : شعرى ورثتنيه . وكان زهير قبل ذلك قال الشعر

---

(١٠٨) اعجاز القرآن ص ٢٠٦ والبيان والتبيان ١/٦٦ .
(١٠٩)
(١١٠)
(١١١)

وقد كان أول ما قال فقال له زهير : الشعر شيء ما قلته ، فكيف تعتد به على ؟ فقال شامة : ومن أين جئت بهذا الشعر ، لعلك ترى انك جئت به من مزينة ، وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحي من غطفان ، ثم لي منهم وقد رويته عني (١١٢) .

وقد تجد ملاحظة في هذه الوراثة الشعرية في قول الطرماح في هجاء الفرزدق وهي ملاحظة تومىء الى شتم مقذع للنيل من الخصم . أم كان في غالب شعر فيشبهه شعر ابنه فينال الشعر من صدد (١١٣) .

اننا نجد نقدا يتسم بالعنصرية أو الطبقية في شعر الفرزدق وهو يعلق على شعر نصيب :

وخير الشعر أكرمه رجالا وشر الشعر ما قال العبيد (١١٤) (١١٥)

---

(١١٢) الاغـــاني ١٠/٢١٢ .

(١١٣) الشعر والشـــعراء ٢/٤٩١ ويبدو أن عامل الوراثة كان حاضرا في تفسير النبوغ الشعري فقد قيل للفرزدق : مالك وللشـــعر ؟ فوالله ما كان أبوك غالب شـــاعرا ولا كان صعصـــعة شأعرا ، فمن أين لك هذا ؟ قال : من قبل خالي ، قيل : أي أخوالك ؟ قال خالي العـــلاء بن قريضة الذي يقـــول :

اذا ما الدهر جر عـــلى أناس بكلكلة أنـــاخ بآخرينـــا

فقل للشـــامتين بنـــا أفيقوا سيلقى الشـــامتون كما لقينا

الشعر والشعراء ١/٣٢٣ والاغاني ٢١/٣٩٦ ولعل جواب الفرزدق قصد به أن يكون ردا على تساؤل الطرماح .

(١١٤) الشعر والشعراء ١/٢٢٣ الاغاني ١/٣٣٨ ، العمدة ١/٧٤ . زهـــر الآداب ١/٣٣٦ .

(١١٥) النقـــائض ٢/٥٠ .

وفي معرض إنتقاص الفرزدق يقول أبو عبيدة : « ومن لؤمه أنه كان يتزوج الزنجيات » .

أكان الفرزدق عنصريا في شعره حسب وإذا تحسب أبا عبيدة في قوله سالف الذكر وخير الكلام في مجال الهدف في الشعر النقد قول مزود بن ضرار في معرض فخره بشعره وقد جمع فيه خير ما يتطلبه الناقد الحصيف في الشعر الحق من أصالة ومتعة وفائدة وقدرة على البقاء ، واعجاب من جمهور المتلقين وتأثير فيهم ، من شاعر خضب القريحة يغترف من بحر لا نفاذ له . قال مزود :

لقد علموا في سالف الدهر أنني
معن اذا جد الجراء ونابل

زعيم لمن قاذفته بأوابر
يغني بها السماري وتحدى الرواجل

تكر فلا تزداد الا استنارة
اذا رازت الشعر الشفاة العوامل

مذكرة تلقى كثيرا رواتها
ضواح لها في كل أرض أزامل

فمن أرمه منها ببيت يلج به
كشامة وجه ليس للشام غاسل

كذاك جزائي في الهدى وان قل
فلا البحر منزوح ولا الصوت صاهل (١١٦)

---

(١١٦) المفضليات ، ق ١٧ ، الابيات ٥٧ ، ٦٢ .

وقد تجد المتعة هنا فى غناء السارى وحداء الرواحل بالشعر والفائدة بقدرته هنا على وصم الحرص به بالعار الدائم وكذلك ما تعنيه الأوابد ، وخلود الشعر وبقائه كشامة وجه ليس للشام غاسل ، وكذلك خصب الشاعرية ... ولكننا لا نستطيع هنا الا أن نقف عند البيت الثالث فهو يكشف عن أدق سمة فى الأثر الفنى الأصيل :

تكر فلا تزداد الا استتارة
اذا رازت الشعر الشفاة العوامل

تلك السمة هى أن الأثر يزداد روعة وجمالا كلما تكرر سماعه أو قراءته أو النظر اليه انه يتكشف دائما ، عن جمال حى لا نفاذ لقوته وتأثيره ، وتلك السمة لا تجدها الا فى روائع الفن فى شعر وموسيقى ورسم ونحت . أما الآثار غير الأصيلة فقد تبدهك بجمالها أول مرة فاذا أعدت التجربة وجدتها وقد فقدت كل شىء ، وماتت كما تموت المخلوقات الجهيضة التى لا تملك القدرة على البقاء .

ان فى تاريخ الأدب العربى القديم قضاة احتكم اليهم الشعراء فى المفاضلة بينهم (١١٧) أو رجال نصبوا من أنفسهم حكاما يفصلون بين المتخاصمين أو المتنافسين .

ويحضرنا هنا أمر جلوس النابغة فى عكاظ فى خيمته الحمراء يقضى بين شعراء كبار كالأعشى والخنساء وحسان بن ثابت الذين راحوا ينشدون أحسن ما عندهم من الشعر بين يديه على ما فى الرواية

---

(١١٧) انظر تاريخ النقد الادبى عند العرب - طه ابراهيم ص١٢ - ٢٥ ، أسس النقد الادبى ص ٤٠٣ .

من وهن يبعدها عن دائرة التصديق(١١٨)• فالعرب عامة كانت تتجنب حتى ممازحة الشاعر خوفا من لفظة تسمع منه فتعود جدا (١١٩) •

(وتجنبوا الحكومة بين الشعراء) (١٢٠) •

وقد يجد المرء فيما يروى من حكومة النابغة ، مع ذلك ما يتصل بالشعر ونقده ، أما ما لدينا من الأحكام فى العصرين الاسلامى والأموى فليس بينها وبين النقد صلة وثيقة • انها أحكام تخرج فى أحيان كثيرة ، عن النقد الأدبى الى المفاضلة بالانسان والمنازل الاجتماعية ، أو قد تتصل بالحرف ووسائل العيش فالفرزدق مثلا قين من قيون والصلتان العبدى من قوم ذوى نخيل ، فما للحكم وكرب النخل ، كما يقول جرير ، ولكن لابد مع هذا كله ، آن نستعرض ولو بايجاز طائفة من نقد الحكام الشعراء أو النقد المنظوم الذى صدر عن هؤلاء القضاة الحكام ، استكمالا للبحث واتماما للفائدة ولنتعرف الهدف والدافع الى ذلك كله •

روى أبو زيد أن المدائنى حدثه أن أوس بن مغراء والنابغة الجعدى اجتمعا فى المربد فتنافرا وتهاجيا ، وحضرهما العجاج والأخطل وكعب بن جعيل ، فقال أوس :

لما رأت جعدة منا وردا
ولوا نعاما فى البلاد ربدا

---

(١١٨) مجلة المورد العدد الرابع - المجلد التاسع - ١٩٨٠ مقال د• حسان فى معايير النقد ص ٢١٢ - ٢١٤ •

(١١٩) العمدة ١/٧٦ •

(١٢٠) المصدر السابق ١/٧٦ •

ان لنـــا عـــليكم معســـدا
كأهلهـــا وركنهـــا الأشـــدا

فقال العجـــاج :

● كل امرىء يعدو بما استعدا ●

وقال الأخطل يعين أوس بن مغراء ويحكم له :

وانى لقـــاض بين جعـــدة عـــامر
وسعد قضـــاء بين الحق فيصـــلا

أبو جعـــدة الذنب الخبيث طعامه
وعوف بن كعب أكرم الناس أولا

وقال كعب بن جعيل ، وفيه من البذاءة ما لا تألفه لغة القضاة :

انى لقـــاض قضاء ســـوف يتبعه
من أم قصـــدا ولم يعدل الى أود

فصلا من القول تأتم القضـــاة به
ولا أجور ولا أبغى عـــلى أحـــد

فـــ •• بنو عامر سعدا وشاعرها
كمـــا تـــ •• بنو سعد بنى أسد (١٢١)

أترى كعبا يهزل فى مقام الحكم ، أم أن أخلاق القوم كانت فى مستوى قضاته فى البيت الأخير • أم يعنى ان حسبناه جادا باستعماله

---

(١٢١) الاغـــانى ١٣/٥ •

تعبيرا بذريا أن بنى عامر فضلت سعدا وشاعرها فى الشعر ، كما فضلت سعد بنى أسد فيه !

ويروى أن أوس بن غلفاء الهيمى والعجير السلولى ومزاحم العقيلى والعباس بن يزيد بن الأسود الكندى وحميد بن ثور الهلالى احتكموا فى وصف القطاة الى ليلى الأخيلية ، فحكمت للعجير السلولى (١٢٢) ومن يستعرض أشعارهم فى وصف القطاة يجد أن العجير جمع فى وصفه وحدة الموضوع وواقعية الوصف ودقته بأسلوب موجز ويروى أنها قالت :

ألا كل ما قال الرواة وأنشدوا بها غير ما قال السلولى بهرج

وحكمت له (١٢٣) ، ومعنى قولها فى وجه من الوجوه ، أن وصفه صادق ، لا زيف فيه ولا زينة مفتعلة تشينه ، ومعنى هذا أيضا أنه شديد الواقعية بعيد عن الفضول ، وان وصف الآخرين بهرج ، وقد يفهم المرء من لفظه بهرج (الافتعال) وعدم الأصالة وكان أثر حكمها فى حميد بن ثور سيئا ، فهجاها بقوله :

كأنك ورهاء العنانين بغلة رأت حصنا فعارضتهن تشجح (١٢٤)

فجعلها بغلة وحكمها شجيجا (نهيقا) .

وقد كثر القضاة فى المفاضلة بين جرير والفرزدق — ومعهما الأخطل أحيانا — ولم يعن أحد منهم بتحليل أشعارهما أو الموازنة بينهما أو تتبع أو ابدهما أو خصائص أشعارهما الفنية أو عيوبهما فى النظم .

---

(١٢٢) الشعر والشعراء ٢/٥٣١ ، الاغانى ٨/٣٥٨ .

(١٢٣) الاغانى ٨/٢٦٣ .

(١٢٤) المصدر السابق ٨/٢٦٣ وتشجح : تصوت .

ولا تفيد أحكامهم النقد الأدبى كثيرا ، ففيها خلط كثير بين شعر الشاعر ومنزلته ، أو منزلة قومه الاجتماعية ، وهذا يفرض خلطا فى معايير ليست من النقد فى شىء :

يروى عن أبى عبيدة ، فى سبب اقتحام الأخطل حمأة التهارش بين جرير والفرزدق أنه قال لابنه « مالك » — وهو أكبر ولده وبه كان يكنى — : انحدر الى العراق حتى تسمع منهما وتأتينى بخبرهما . فانحدر مالك حتى لقيهما وسمع منهما ثم أتى أباه . فقال له : كيف وجدتهما ؟ قال : وجدت جريرا يغرف من بحر ووجدت الفرزدق ينحت من صخر . فقال الأخطل : الذى يغرف من بحر أشعرهما . وقال يفضل جريرا على الفرزدق :

انى قضيت قضاء غير ذى جنف
لما سمعت ولما جاءنى الخبر

أن الفرزدق قد شالت نعامته
وعضه حية من قومه ذكر(١٢٥)

فان صحت هذه الرواية كان الحكم لمالك بن الأخطل فأخذ الأخطل به من غير أن ينظر فى اشعارهما .

وقد يتردد المرء فى قبول الرواية ، فمن الصعب ، حقا ، أن يظن أن الأخطل لم يقف على قصائد كل من الشاعرين المتخاصمين ، وهو فى الجزيرة ، فيرسل ولده ليستطلع له أمرهما ، ثم لابد من القول ان صحت الرواية ، أن ولده هذا ناقد بصير بالشعر ليعتمد عليه فى مثل

---

(١٢٥) الأغانى ١١/٦٢ ؛ البيان والتبيين ٢/٢٧٣ .

هذه السفارة الغريبة ، ولابد أنه يثق بذوقه ومعرفتـــه ليقبـــل حكمه بلا تردد ، من غير اطلاع واسع على آثار الشاعرين . ولهذا كله وجب أن ننظر الى مثل هذه الرواية بشيء من الشك غير قليل والحق ان أكثر هذه الروايات التي تذكر المفاضلة بين جرير والفرزدق عرضة للشك فيها بل ان الشك فى أكثرها ينبغى أن يكون أدنى الى القبـــول من التسليم القاطع بصحتها .

ان روايات المفاضلة بينهما هذه حصيلة من ركام تعصب المتعصبين لهما لا تعكس فى أكثرها الا هذا التعصب أو الانحياز (العـــاطفى) الى أحدهما ، مما كان سمة المجتمع طوال ثلاثين عاما أو تزيد .

ومهما يكن الشك فى سفارة ابن الأخطل وحكمـــه الذى ورد به على أبيه ، فان البيتين سالفى الذكر قد يكونان من نظم الاخطل ، وعليهما بنيت رواية سفارة ابنه وحكمه ، وليس فى البيتين غير ادعاء القضاء العدل ، وهما يخلوان من آى معيار نقـــدى من تفضـــيل جـــرير على الفرزدق ، غير أننا قد نجد فى وعضه حية من قومه ذكر اشـــارة الى فحولة جرير فى الشعر ، والهجاء خاصة وتلك قد تنطوى على «مفهوم» يعنى ، فيما يعنى خصب الشاعرية وقوتها ، أما الفرزدق فقـــد ظهـــر فيها ، تفاهته فى الشعر وضعفه .

وروى أبو يحيى الضبى أن الفرزدق وجريرا والأخطل اجتمعوا عند بشر بن مروان ، وكان يغرى بين الشعراء ، فقال للأخطل : احكم بين الفرزدق وجرير . قال : أعفنى أيها الأمير : قال : احكم بينهمـــا . فاستعفاه بجهده ، فأبى الا أن يقول ، فقال : هذا حكم مشـــئوم ، ثم قال : الفرزدق ينحت من صخر وجرير يغرف من بحـــر ، فلم يرض جرير بذلك وكان سبب الهجاء بينهما فقال جرير فى حكومته :

ياذا العباية ان بشرا قد قضى
أن لا تجوز حكـومة النسـوان

فدعوا الحكومة لسـتم من أهلها
ان الحكـومة فى بنى شـيبان(١٢٦)

ورواية أخرى يرويها بو عبيـدة ، أيضـا ، تقول : ان بشر بن مروان دخل الكوفة ، فقدم عليه الأخطل ، فبعث اليه محمد بن عمير بن عطارد بن حاجب بن زرارة بألف درهم وكسوة وبغلة وخمر وقال له : لا تعن على شاعرنا ، واهج هذا الكلب الذى يهجـو بنى دارم ، فانك قد قضيت على صاحبنا ، فقل أبيـاتا ، واقض لصاحبنا عليه ، فقـال الأخطـل :

أجرير انك والذى تسـمو له كأسيفة فخرت بحدج حصان
عملت لربتهـا فلمـا عوليت نسلت تعارضها مع الركبـان
أتعد مأثرة لغيرك فخـرها وثنـاؤها فى سـالف الأزمان
تاج الملوك وفخرهم فى دارهم أيام يربـوع مع الرعيـان

وقال جرير يرد حكومة الأخطل :

لمن الديار ببرقـة الروحان اذ لا نبيع زماننا بزمـان

وهى طويلة يقول فيها :

ياذا الغبـاوة ان بشرا قـد قضى
الا تجـوز حكـومة النسـوان

---

(١٢٦) طبقات فحول الشعراء ١/٤٧٤ ، الاغانى ١١/٦٣ .

فدعـوا الحكومة لسـتم من أهلها
ان الحكـومة فى بنى شـيبان(١٢٧)

واتهم جرير الأخطل بالرشوة فقال :

رشـتك مجاشع شـكرا يفلس فلا تهنيك رشوة من رشاك(١٢٨)

وهى اشارة الى ما جاء فى الرواية السابقة من رشـوة محمـد ابن عمير للأخطل .

وقيل ان بشر بن مروان سأل الأخطل عن الفرزدق وجرير فقال « أصلح الله الأمير أما الفرزدق فأشعر العرب »(١٢٩) .

ويلفت النظر فى رواية الضبى غضب جرير من قول الأخطـل : أنه يغرف من بحر وأن الفـرزدق ينحت من صـخر ، وكان الأولى أن يغضب الفرزدق من هذا الحكم . مما جعـل هـذه الرواية موضـع تساؤل(١٣٠) . ولكن الرواية التى تقول بتدخل محمـد بن عمـير فى حكومة الأخطل يؤيدها هجاء جرير لمحمد هذا(١٣١) ، واتهام جـرير للأخطل بالارتشاء فى بيته : « رشتك مجاشع .. » ومن يدرى فلعـل الرواية قد نسجت بسبب هجاء جرير لمحمد بن عمير واتهامه الأخطـل بالارتشاء فى الحكم .

---

(١٢٧) الاغانى ١١/٦١ ـ ٦٣ ، النقائض ١/٤٩٤ وما بعدها .
(١٢٨) طبقات فحول الشعراء ١/٤٥٥ .
(١٢٩) النقـائض ٢/٨٨٨ .
(١٣٠) الكامل للمبرد ١/٢٠١ .
(١٣١) النقـائض ١/٤٩٥ .

يؤيد هذا ما سيرد من اتهام جرير ومشايعيه لكل خصم له بسرقة الشعر أو بالاستعانة بالآخرين فى هجائه ، ونسج الروايات الكثيرة فى تأييد ذلك وهو أمر لا يخلو من غرابة •

وقد تخلص من الروايات المختلفة الى الأهداف الآتية :

١ — ان رواية اشارة بشر بن مروان للأخطل وحمله على الحكم بين جرير والفرزدق أكثر قبولا ، لما عرف عن بشر ، خاصة ، والأمويين عامة ، من اغراء الشعراء للتهارش فيما بينهم لأسباب منها الهاء الجمهور بمثل هذا التهارش ، واثارة العصبيات بين القبائل •

٢ — ان الأخطل فضل الفرزدق على جرير ، تصريحا أو تلميحا ، فكان سببا فى هجاء جرير له ، والتحامهما فى نقائض لم تخف ثائرتها الى أن هلك الأخطل فأخلى مكانه فى ميدان الهجاء •

٣ — ان الرواية التى تقول ان الأخطل جعل من الفرزدق « أشعر العرب » تبدو أكثر قبولا ، لانها تدل على حكم عام لا يخلو من دهاء ، فقد جعل الفرزدق أشعر العرب من غير أن يقرنه ، فى معرض المفاضلة ، بشاعر معين ، وربما ظن الأخطل أن حكمه هذا لا يثير الشعراء ، وهذا ما حدث ، لولا أن جريرا ، كان مريضا ، كما فى حال مزر وعندما أطرى كعب بن زهير نفسه والحطيئة ، وكان جرير دائما ، يبحث عن الخصوم يناطحهم ليزداد نجمه سطوعا ومجده علوا •

ومن يستعرض من حياته وشعره يجد أنه لا يهش لشىء كما يهش لظهور خصم جديد ، فالهجاء سلمه الى العلى ، كما يفهمه ويريده ، وكثرة الخصوم ، عنده دليل فحولته وقوته ، اسمعه فى شاعريته « السادية » :

لما وضعت على الفرزدق ميسمى
وضعا البعيث جدعت أنف الأخطل (١٣٢)

فلم تفلت ملاحظة الأخطل التى انطوى عليها جوابه لبشر : « الفرزدق أشعر العرب » دون أن تثير غضب جرير وهجاءه . وهى ، مع ذلك ، ملاحظة واضحة ، وان دلت على دهاء فى الحكم يبعدها عن التخصيص بالحط من شاعر معين ، فقد فضل الفرزدق فيها على شعراء العرب وفهم بطبيعة الحال جرير .

أما الأبيات التى يروى أن الأخطل قالها بتأثير الرشوة فربما تلك المناسبة لأن الرواية التى تشتمل عليها لا تذكر انه قالها فى مجلس بشر، وما كانت جوابا لسؤال بشر فى المفاضلة بين الشاعرين ، وان اشتملت نقيضة جرير لها على ذكر يفيد أن الأخطل حكم فى مجلس بشر للفرزدق . ولعل حكمه الذى تذكره النقيض هو قوله لبشر « الفرزدق أشعر العرب » .

والصلتان العبدى واسمه « قثم بن خبية أحد بنى محارب بن عمرو بن محارب بن وديعة من عبد القيس وينسب اليه فيقال : العبدى » (١٣٣) أشهر القضاة الذين فصلوا بين جرير والفرزدق . ففضل الفرزدق فى شرف النسب وعلو المنزلة ، وجريرا فى الشعر وهو قضاء عجيب ، وان كان يجرى مع مواضعات القوم فى تلك الأيام التى شهدت احياء المثل الجاهلية ، ومنها التفاخر بالأنساب والأيام .

تذكر رواية أن جريرا والفرزدق تحاكما الى الصلتان

---

(١٣٢) نقائض جرير والفرزدق ١/٢١٣ .

(١٣٣) الخزانة ٢/١٨١ ، المؤتلف والمختلف ص ٢١٤ شاعر مشهور خبيث .

العبدى(١٣٤) ، ويدعى الصلتان فى قصيدته التى تضمنت « قرار الحكم » أن تميما أتته ليفصل بينهما ، فهو « بالفصل المبين قاطع » كما « أنفذ الأعشى قضية عامر »(١٣٥) فهو اذن مفوض أمر التحكيم وأنه سيفصل فيه • ويذكر أنه محايد لا يجور فى حكمه ، لأنه لا يخاف شتمهما ولا ينتفع بجدهما فى الحكم ، وهو عف لا يرتشى ، فعليهما ، من أجل هذا ، أن يرضيا بحكمه ولا يجزعا مما سيقطع به •

ثم يقارن بين الأمور المتفاوتة بين الحيتان والضفادع والذرى والأجادع ، مثلا ، وغير هذه الأشياء المتباينة ، فلا يتساوى الخصمان جرير والفرزدق كما لا تتساوى تلك الاشياء • ويعلن حكمه من غير أن يذكر الأسباب التى دعته اليه ، غير المقارنات بين الأشياء المتفاوتة، فالحيتان والضفادع تختلف ، مثلا ، والبحر الذى يضمهما واحد ،وجرير والفرزدق ، يختلفان عند المقابلة بينهما ، أيضا ، فى ميزان القضاء وان انتميا كلاهما الى تميم ، فكليب رهط جرير ، تحظى بالشعر ، أما دارم ، رهط الفرزدق فخير من كليب فى صلبات المجد • وليس كجرير شاعر لولا ضعة « كليب » قومه فهم عليه ، وجرير « أشد الشاعرين شكيمة » وهى الاشارة الوحيدة التى يمكن تفسيرها بأنه الأقوى فى ميدان الهجاء أنه أشعر الشاعرين بهجائه المحض لولا أن الفرزدق قد علاه وأشرف عليه بمجد قومه • فاذا كان شعر جرير قد وضعت من قوة شكيمته ضعة كليب ، فان شعر الفرزدق قد رفع منه مجد قومه ، الباذخ • معيار عجيب فى النقد لا يمت الى الفن أو الجمال بسبب ، وليس لأحد الشاعرين يد فيه ، ولكنه معيار جرى التفاضل به بين الشاعرين •

---

(١٣٤) نقائض جرير والفرزدق ٢/١٠٥٠ •

(١٣٥) المصدر السابق والجزء والصفحة •

ويعترف الصلتان فى مطالعة الحكم المنظومة هذه أن الفرزدق قد حاشده أن ينصره فى الحكم ، ولكن صواقع جرير ألحت عليه ، فلا سبيل ، معها الى مناصرته :

فقلت له انى ونصرك كالذى يثبت أنفا كشمته الجوادع

فنصره مع صواقع جرير ضرب من المحال . ولكى يوازن بين الأمرين ويعدل فى ميزانه كما يظن وهو الحكم العدل الذى لا يميل به جور ولا رشوة أو طمع ، ذكر أن كليبا ادعت أنها شرفت على رهط الفرزدق ، فأجابها بأن لا طريق الى ما ادعت وآخيرا قوله :

ويرفع من شعر الفرزدق أنه له باذخ اذى الخسيسة رافع

فرفعة الشعر برفعه شرفه قد يتضمن ، فوق ما ذكرنا آنفا ، تفوق الفرزدق فى الفخر لأنه انما ترجم عن مجد باذخ ، اذا تضمنه شعر واطىء ارتفع به الى حيث يرتفع المجد واليك نص الحكم :

أنا الصلتان(١٣٦) والذى قد علمتم
متى ما يحكم فهو بالحكم صادع
أتتنى تميم حين هابت قضاءها
وانى لبالفضل المبين قاطع
كما أنفذ الأعشى قضية عامر
وما لتميم من قضائى رواجع

---

(١٣٦) روى ابن قتيبة « أنا الصلتان الذى قد علمتم » بالنسبة الى الصلتان ، ومعناه فى اللغة المنشيط والحديد من الخيل ، والحمار الشديد . الخزانة ٢/٩٧٨ .

ولم يرجع الأعشى قضية جعفر
وليس لحكم ، آخر الدهر ، راجع

ساقضى قضاء بينهم غير جائر
فهل أنت للحكم المبين سامع

قضاء امرىء لا يتقى الشتم منهم
وليس له فى الحمد منهم منافع

قضاء امرىء لا يرتشى فى حكومة
اذا مال بالقاضى الرشاد المطامع

فان كنتما حكمتمانى فاصمتا
ولا تجزعا وليرض بالحكم قانع

فان تجزعا أو ترضيا لا أقلكما
وللحق بين الناس راض وجازع

فأقسم لا آلو عن الحق بينهم
فان أنا لم أعدل فقل أنت ضالع

فان يك بحر الحنظليين واحدا
فما يستوى حيتانه والضفادع

وما يستوى صدر القناة وزجها
وما يستوى شم الذرى والاجادع

وليس الذنابى كالقدامى وريشة
وما تستوى فى الكف منك الأصابع

ألا انما تحظى كليب بشعرها
وبالمجد تحظى دارم والأقارع

ومنهم رؤرس يهتدى بصـــدورها
والأذناب قدما للرؤوس توابـــع

أرى الخطفى بذ الفرزدق شـــعره
ولكن خـــيرا من كليب مجاشـــع

فيا شاعرا لا شـــاعر اليوم مثله
جرير ، ولكن فى كليب تواضع

جرير أشـــد الشاعرين شـــكيمة
ولكن علتـــه الباذخات الفـــوارع

ويرفـــع من شعر الفرزدق أنه
له باذخ لذى الخسيســـة رافـــع

وقد يحمد السيف الدران(١٣٧)بجفنه
وتلقاه رثا غمـــده وهو قاطـــع

يناشدنى النصر الفرزدق بعـــدما
ألحـــت عليه من جرير صواقـــع

فقلت لـــه انى ونصرك كالـــذى
يثبت آنفا كشمته الجـــوادع(١٣٨)

---

(١٣٧) السيف الدران : الذى لا يقطـــع .

(١٣٨) كشمته القواطع : من كشم أنفه : اذا قلعه . والجوادع جمع جادعه وهى التى تقطع الأنف .

وقالت كليب قد شرفنا عليهم
فقلت لها : سدت عليك المطالع(١٣٩)

وبعد اثبات هذه القصيدة كاملة هنا ، لابد أن نخرج بالأهداف الآتية :

١ ــ أن تميما أودعت اليه القضاء بعد أن هابت قضاتها الخوض فى أمر الفصل بين شاعريها المتخاصمين ، فرضى بذلك ، وصدع بالأمر ، وذلك حمق كانت العرب تحاول تجنبه(١٤٠) .

٢ ــ انه ادعى الحياد والعدل والعفة .

٣ ــ اقتصر ، فيما يفهم من اشارات مقتضبة وردت فى قصيدته، على غرض الهجاء .

٤ ــ قضى لجرير على الفرزدق لقوة هجائه وشدته ، ولم يذكر سمة قضية فنية واضحة . غير ذلك ، ولعل شتم جرير الحاد السوقى الذى يدور فى هجاء الفرزدق على فسقه ، ونفيه من المسجد ، وانه ذين ، وأمور أخرى قليلة ، هذا الشتم المباشر الذى لا يتردد عن البذاءة فى أدنى دركاتها ، ربما كان عاملا خفيا اشترك فى معيار المفاضلة ، وربما كان وراء الدوافع النفسية الكامنة التى تشرع فى نفس القاضى ما يثنيه عن الغض من شاعرية جرير .

٥ ــ مارس هذا القاضى ، على حياده المزعوم ، أسلوب الموازنة الفنية والاجتماعية بين الشاعرين بما يجعله يحظى ولو بالحد الأدنى من قبولهما ، وتلك سذاجة لعله عدها فى دخيلة نفسه دهاء

---

(١٣٩) أمالى القالى ٢/١٤١ ــ ١٤٢ ، الخزانة ٢/١٧٦ ــ ١٧٧ ومنها أبيات النقائض ٢/١٠٥٠ والمؤتلف ١٤ .

(١٤٠) العمدة ١/٧٦ .

٦ — لعل شرف الفرزدق الذي رفع من شعره ، فى الحكم يشير فيما يشير الى فخر الشاعر ، ذلك الفخر الذى علا به على فخر جرير وبذه ، فظهور جرير بالهجاء يقابله فخر الفرزدق الذى سبق به جريرا وشعراء عصره جميعا .

على أننا لا ننسى أن الصلتان قد فضل جريرا على الفرزدق بالشعر، ولم يستثن غرضا منه ، وهذا ما يضعف من ظننا أن الصلتان قد أشار، بذكره ارتفاع شعر الفرزدق لرفعة شأنه الى فخر الفرزدق الذى ارتفع ، حقا على فخر جرير .

٧ — ويكشف حكم الصلتان ، على ما فيه من خلط فى المعيار النقدى ، نظرة الجمهور أو جمهور من الجمهور ، آنئذ ، الى الشاعر وسط اطاره الاجتماعى ومنزلته الاجتماعية . ويؤيد هذا أننا لم نقف على رواية تسجل احتجاجا على مثل هذا الخلط الواضح فى المعايير الفنية والاجتماعية .

وأغرب من هذا ، أيضا ، أن الأخبار تنقل فيما تنقل ، أن جريرا قال شعرا لم يرض فيه بالحكم وأنه بكى حين وقف عليه فلم (يملك سوابق عبرة) وكأن المفاضلة بين الرهطين أهم من المفاضلة بين شعر الشاعرين التى من أجلها طلبت تميم ، ان صح ادعاء الصلتان ، هذا التحكيم ، والغريب أيضا ، أن جريرا يفتتح احتجاجه فى قولين منسوبين اليه بذكر بكائه من هذا القضاء .

ولو استحضر القارىء فى ذهنه صورة الشاعر وهو يبكى لسماعه مثل هذا القضاء لوجد ما يسليه ويمتعه حقا ، لما فى الموقف من مفارقة لا يخطئها ابن القرن العشرين . أتراه ، حقا ، أمضه بذكره قصة قومه ولم ينفع تفضيله فى الشعر على خصمه من أن يجد شيئا من العزاء يخفف من ألمه ؟

لقد اتهمه جرير بالقضاء المختلط غير الواضح ، ولو كان القاضي من رهط المعلي وطارق(١٤١) لكان قضاؤه خاليـا من اللبس . أترى في ذهن جرير هذا الخلط الذي أشرنا اليه في معيـاره ؟ أم انه كان يريد تفضيلا له في الشعر والمنزلة الاجتمـاعية معا على ما بين كليب ودارم في موازين التفضيل . يروى المبرد عن أبي عبيـده أن جريرا غضب من المنزلة التي أنزله اياها فقال يهجوه :

أقـول ولم أملك سـوابق عبرة
متى كان حكم في بيوت الهجارس(١٤٢)

فلو كنت من رهط المعلي وطارق
قضيت قضاء واضحا غير لابس(١٤٣)

واستنكر أن يحكم امرؤ من سكان القـرى التي تعنى بالنخـل حكم الله العـدل يقول :

أقول لعيني قد تحدر ماؤها متى كان حكم الله في كرب النخل(١٤٤)

وروى أن الصلتان لم يجبه فسقط(١٤٥) ، ولكن صاحب الخزانة يذكر أنه أجابه بقوله :

---

(١٤١) المعلى : أبو الجارود أو جده ، وطارق بن النعمان من بني الحارث ابن خزيمة ، وأم المنذر بن الجارود بنت النعمان الخزانة ٨/١٧٦ - ١٧٧ .

(١٤٢) رهط الصـلتان .

(١٤٣) الخـزانة ٢/١٧٨ .

(١٤٤) المصدر السابق ٢/١٧٨ .

(١٤٥) المصـدر السابق ٢/١٧٨ .

تعيرنا بالنخل والنخل مالنا
ووود أبوك الكلب لو كان ذا نخل

وأى نبى كان من غير قرية
وهل كان حكم الله الا مع الرسل(١٤٦)

ويستطرد البغدادى : وقيل ان هذين البيتين لخليد عينين ، أحد بنى عبد الله بن دارم وكان ينزل فى قرية بالبحرين يقال لها : « عينين »(١٤٧) وفى طبقات فحول الشعراء أن خليد عينين من أهل هجر اعترضه فقال :

وأى نبى كان من غير قرية وما الحكم ، يا ابن اللؤم، الا مع الرسل

فأجابه جرير :

فخل الفخر يا ابن أبى خليد
وأد خراج رأسك كل عام(١٤٨)

أما الفرزدق ، ففى رواية المبرد عن أبى عبيدة ، أنه رضى « حين شرفه عليه وقدمه على قومه » وقال : « انما الشعر مروءة من لا مروءة له ، وهو أخس حظ الشريف » ورضى الفرزدق وتعليقه يبعثان أيضا على الاستغراب ، وان كان كل شىء ، جائزا فى جنون المفاخرة بالأنساب التى ارتمى فيه جمهور العصر الأموى .

حتى ان شاعرا من شعراء الخوارج كالطرماح لم يسلم منه على ما عرف عن الخوارج من ترفعهم على كثير من مواضعات عصرهم ،

---

(١٤٦) المصدر السابق ٢/١٧٨ .
(١٤٧) المصدر السابق ٢/١٧٨ .
(١٤٨) طبقات فحول الشعراء ١/٤٠٥ .

ومنها عصبية القبيلة والفخر بامجادها الجاهلية ، وقد تبدو صلة ما بين تعليق الفرزدق وبيت الصلتان .

ويرفع من شعر الفرزدق انه له باذخ لذى الخسيسة رافع

فهل استلهم الرواة التعليق من بيت الصلتان ونسبوه الى الفرزدق ؟

قد يبدو هذا التساؤل ممكنا اذا تذكرنا أن رواية أخرى تذكر أن الفرزدق لم يرض بحكم الصلتان قائلا :« أما الشرف فقد عرفه ، وأما الشعر فما للجرانى والشعر » فهذا تعليق قد يصدر عن الفرزدق وهو معقول لانه يسجل رضاه عما حكم به من الشرف له ، وانكاره نقد الشعر أمثاله من البحرانيين وما يبدو لنا غريبا من الربط بين النقد والشعر والاقليمية ، لم يكن غريبا فى تلك الأيام .

وفيما يتصل بنقد الصلتان ، نجد الأخطل يهتبل المناسبة ويعلق قائلا :

ولقد تقايستم الى أحسابكم
وجعلتم حكما من الصلتان
فاذا كليب لا يساوى دارنا
حتى يساوى حصرم بأبان
واذا جعلت أباك فى ميزانهم
رجحوا وشال أبوك فى الميزان
واذا وردت الماء كان لدارم
عفوانه وسهولة الاعطان(١٤٩)

---

(١٤٩) طبقات فحول الشعراء ١/٤٧٥ - ٤٧٦ - حصرم : جبل فى ديار بنى أسد ، وابان : جبل ضخم .

وقد اقتصر تعليق الأخطل على المقايسة بين الأحساب ، حيث فضل الصلتان قوم الفرزدق ، وضرب صفحا عن المفاضلة فى الشعر ، وهو تعليق ذكى من خصم لا يبتغى الا الإنتقاص من خصمه . ونجد أيضا رجلا من عبد القيس ، من بنى عصر ، يقال له : أحمر بن غدانة يؤيد الحكم ، ويحمق من يساوى بين كليب ودارم وبين جرير والفرزدق ، يقول :

علام تعنى يا جرير وقد قضى
أخو عصر أن قد علاك الفرزدق

وان امرءا سوى كليبا بدارم
وسوى جريرا بالفرزدق أحمق(١٥٠)

فيرد جرير قائلا :

نبئت عبدا بالعيون يسبنى
احيمر سواوا على كرب النخل(١٥١)

ولم يكن جرير ذكيا فى رده ، وهو يخلط بين نقد الشعر ووسائل العيش ، ولو تأمل قليلا لوجد أحمر غدانة غير محق فى نقله قضاء الصلتان ، لأن هذا القاضى لم يقض كما سبق ان ذكرنا ، بتفضيل الفرزدق ، وهو فى حقيقة الأمر لم يساو بين كليب ودارم وبين الفرزدق وجرير ، ولكنه وان فضل دراما على كليب فى المنزلة الاجتماعية ، فقد فضل جريرا على الفرزدق فى الشعر ، فان كان ابن غدانة

---

(١٥٠) طبقات فحول الشعراء ١/٤٤٧ ـ ٤٤٨ .
(١٥١) المصدر السابق ١/٤٥٠ .

حمق من يساوى بين جرير والفرزدق فما رأيه وابن غدانة قد فضل جريرا على الفرزدق ؟ أجل لم يكن دقيقا فى تعبيره ، ولم يكن جرير ذكيا فى رده ، وأكثر من هذا أن جريرا فى رده أثار ولا شك ، كل سكان القرى ممن يعنون بالنخل ، كما تجد ذلك فى القول المنسوب الى خليد عينين ، وقد مر ذكره ، وهو :

تعيرنا بالنخل والنخل مالنا
وود أبوك الكلب لو كان ذا نخل

وأى نبى كان من غير قرية
وهل كان حكم الله الا مع الرسل

ويبدو أن المعانى فى أحيان كثيرة لا تواتى جريرا ، فيظل يدور حول أمور محددة لا يتعداها ، فمعانيه فى نقائضه مع الفرزدق ، تدور على أمور قليلة تكاد يعيدها ، كما يقول البحترى(١٥٢)فى كل قصيدة، وفى رده على الصلتان وابن غدانة لا يتعدى تعييرهم بالعناية بالنخل.

ونترك قضاء الصلتان وما جر من تعليقات ، لنلتقى برواية تذكر أن عرادة النميرى كان نديما للفرزدق ، فقدم الراعى البصرة ، فدعاه عراوة فاطعمه وسقاه وقال : فضل الفرزدق على جرير فأبى ، فلما أخذ فيه الشراب ، لم يزل به حتى قال :

يا صاحبى دنا الرواح فسيرا
غلب الفرزدق فى الهجاء جريرا(١٥٣)

---

(١٥٢) المثل السائر ٣/٢٧٤ - ٢٧٥ ، العمدة ٢/١٠٤ ، الكشف عن مساوىء المتنبىء ص ٢٢٤ - ٣٢٥ الصناعتين ص ٣٠ .

(١٥٣) طبقات فحول الشعراء ١/٤٣٥ .

ونلاحظ هنا أمرين : الأول : ان الراعى سيق الى تفضيل الفرزدق بفضل الشراب .

وهو يذكرنا بتفضيل الأخطل الفرزدق على جرير بسبب الرشوة التى أفادها من محمد بن عمير وهناك كثير من الاخبار مما يتصل بجرير والفرزدق كما أشرنا من قبل هذه الأخبار تحط من أمر خصوم جرير ومنهم الفرزدق ، وتنسب اليهم ما يغض من أشعارهم أو «شخصياتهم الشعرية» .

وقد نستبق الأخبار والروايات فنذكر أن الخصومة الطويلة بين جرير والفرزدق وقيل أنها أربت على ثلاثين أو أربعين عاما ، وتعصب الناس لهذا أو ذاك منهما ، جعل تلفيق الروايات ووضع الأخبار والمبالغة فى رفع الشاعر أو الغض منه ، أمورا شائعة فى هذا الميدان. ولكن جريرا كان مجدودا ، ان صح التعبير ، لانه فاز بجماعة من الرواة وأصحاب الأخبار متصلة السلسلة حتى العصر العباسى الأول فأولاد جرير وأحفاده كان يرون أخبار أبيهم وجدهم ومآثره ويسألهم الناس عنها ، ولعلهم لم يسلموا فى التعصب له والتحامل على خصومه ، فمجدهم من مجده ، ولقد وجدوا أبواب الملوك وسراة الناس وعلماء الشعر مفتحة بسبب ما كان عليه جرير من الشهرة وذيوع الصيت(١٥٤) .

---

(١٥٤) الاغانى ٨/٦٠ ، ٨/٥٣ ، ٨/٧٢ ـ ٧٣ ، ٨/٢٨٦ الشعر والشعراء ١/٧٧ ، العمدة ١/٩٦ ، شرح النهج ٢/١٥٦ ، الخزانة ٢/٣٣٢ أمالى القالى ، ٢/١٧٩ ـ ١٨٠ ، نقائض جرير والفرزدق ٢/١٠٤٧ ـ ١٠٤٨ الموشح ٢٠٦ .

زد على ذلك الانطباع الشائع ، آنذاك بأن جريرا أعف وأكثر تدينا ، وأن الفرزدق معروف بفسقه وفجوره ، مما جعل كثيرا من اللغويين ، وجلهم من ذوى الغيره الظاهرة على الدين والمحافظة على الأعراف والتقاليد ، يتعاطفون مع جرير ، ويتعصبون على الفرزدق الرقيق الدين ، والأصمعى أكثر القوم تعصبا لجرير وانحرافا عن الفرزدق ، وهو لا يتردد أحيانا عن التلفيق والاختلاق ان دعت الحاجة(١٥٥) الى ذلك ، وقد يتدخل هواه فى معاييره النقدية(٥٦) .

وتروى بعض الروايات ، أن الفرزدق هجا باهلة قوم الأصمعى ، فكان ذلك من أسباب انحراف الأصمعى عنه ومحاولة انتقاصه والنيل منه . ومن يستعرض حياة الفرزدق يجد أنه ماهر فى صنع الأعداء فقد هجا كثيرا من الأمراء والسراة ، وما كان يرد لسانه عن الجواب المسكت المفحم فى المناسبات الطارئة .

وقد أشارت الروايات الى اجوبته القاسية لمن يعترض طريقه ، ولبعض النحويين فى أيامه حينما تصدى لبعض سقطاته فى النحو ، ثم ان الفرزدق كان علوى الرأى وان لم يجاهر بذلك دائما . أما جرير فأموى ، ولعل الدعاوة الأموية كانت اذ ذاك فى جانب جرير ، ودعاوة الملوك فى كثير من الأحيان ، تمويه عن الحق ، وتسويغ للباطل بخلق الأخبار وتلفيق الأقاويل والروايات وكل خصومة لها متعصبون ، ومتحزبون ، تجد غذاءها الذى يمنحها الحياة والنماء فى التلفيق والتزوير .

---

(١٥٥) مجالس العلماء ص ٢٤ - ٢٦ .

(١٥٦) التنبيهات لعلى بن حمزة ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

والثانى : أن تفضيل الراعى للفرزدق على جرير فى الهجاء وليس فى غرض آخر . وما كان الراعى ناقدا حصيفا ، ان صدقت الرواية لأن الفخر والوصف الفنى والسرد الملحمى (ان جاز التعبير) أهم ما يمتاز به الفرزدق ، وان عمى ذلك على كثير لعسر لغته وكثرة مفردات شعره .

أما « سراقة البارقى » فقد روى أن بشر بن مروان أغراه بهجاء جرير كما أغرى قبل ذلك بين جرير والأخطل وكان بشر « يغرى بين الشعراء »(١٥٧) وقد يكون ذلك جزءا من سياسة أموية لإلهاء الناس واثارة العصبية بين القبائل والأفراد ، قال سراقة :

أبلغ تميما غثها وسمينها
والقول يقصد تارة ويجور

أن الفرزدق برزت حلباته
عفوا ، وغودر فى الغبار جرير (١٥٨)

ما كنت أول محفز عثرت به
آباؤه ، ان اللئيم عثور

حرر كليبا ان خير صنيعة
يوم الحساب الصوم والتحرير

---

(١٥٧) طبقات فحول الشعراء ١/٤٤٠ .

(١٥٨) فى رواية الاغانى .

ان الفرزدق برزت اعراقه سبقا ، وغودر فى الغبار جرير
ذهب الفرزدق بالفضائل والعلا وابن المراغة مخلف محسور

هذا القضاء البارقي وانى
بالميل في ميزانه لجرير(١٥٩)

وفي الأبيات كما يرويها ابن سلام في طبقاته ، أو في رواية الأغاني ، يشير البارقي في تفضيله الفرزدق على جرير ، الى وراثة الشاعرين ، وأصالة أعراق الفرزدق ولؤم آباء جرير ، وان تخلف جرير مرده الى ضعة نسبه ، وبيت البارقي في الأغاني :

ذهب الفرزدق بالفضائل والعلا وابن المراغة مخلف محسور

لا يكشف عن شيء جديد ، وان كانت الفضائل « تثير الفضول» وأغلب الظن أن البارقي يقصد بفضائل الفرزدق شرف نسبه ومنزلة آبائه العالية وفعالهم الحميدة لا فضائله الشخصية ومن يدري ؟ لعل فسق الفرزدق وما يبدو من رقة دينه ليسا مما يعد في الرذائل في حساب البارقي أو مجتمعه ، فان كان هذا حقا ففضائل الفرزدق الشخصية الأخرى كثيرة .

منها الدفاع عن المحرومين والمسخرين(١٦٠) قهرا من أعمال السخرة ، ومهاجمة ذوي السلطان فان سلبوا السلطة مدحهم وأثنى عليهم(١٦١) ومنها ضمان حماية العائذ بغير أبيه في كاظمة(١٦٢)

---

(١٥٩) طبقات فحول الشعراء ١/٤٤٠ ـ ٤٤١ وفي رواية الاغاني : بالميل في ميزانه لبعيد المؤتلف ١٩٧ ـ ١٩٨ والمحمر : اللئيم والفرس الهجين .

(١٦٠) الاغاني ٢١/٣١٣ ـ ٣١٤ .

(١٦١) نفسه ٢٠/٣٩٧ ، ٢١/٣١١ ـ ٣١٣ .

(١٦٢) نفسه ٢١/٣٥٤ .

وقول الحق حين يصعب قوله(١٦٣) وكثير من أمثال ذلك ، ولا شك أن ذهاب الفرزدق بالعلا يعني منزلته العالية فى تميم ، ولعله يريد ، أيضا ، بذكر الفضائل والعلا ، تبريزه فى الفخر الذى لا يشتمل موضوعه ، فى جوهره الأعلى الفضائل والعلا . فان كان فى هذا التفسير شىء من الصواب فتخلف جرير وراء الفرزدق اشارة الى تخلفه فى غرض الفخر . ويرد عليه جرير فى قصيدة يخاطب فيها بشر ابن مروان قائلا :

يا بشر حق لوجهك التبشير
هلا غضبت لنا وانت أمير

قد كان بالك ان تقول لبارق
يا آل بارق فيم سب جرير(١٦٤)

وليس فى قوله شىء يتصل بالنقد سوى أنه رأى فى نقد البارقى شتما لا يعرف سببه « وأغضب بشرا الذى قيل انه غلبه بقوله : « أما وجد ابن اللخناء رسولا غيرى »(١٦٥) .

ويروى أن جريرا حين قال فى معرض هجائه تغلب قبيلة الأخطل:

لا تطلبن خئولة فى تغلب فالزنج أكرم منهم أخوالا

غضب العبيد من الزنج ، وقالوا : من يعذرنا من ابن الخطفى ؟

---

(١٦٣) نفسه ١٥/٣٢٦ ـ ٣٢٧ .
(١٦٤) المؤتلف ص ١٩٨ .
(١٦٥) عيار الشعر ص ٩٣ .

من لنا من يرد عليه ؟؟ فقال رجل منهم يقال له : سفيح بن رباح(١٦٦) مولى بنى ناجية : أنا لكم . ثم قال من قصيدة مشهورة معروفة ، فذكر أكثر من ولدته الزنج من أشراف العرب :

ان الفرزدق صخرة ملمومة
طالت ، فليس تنالها ، الأوعالا

قد قست شعرك يا جرير وشعره
فقصرت عنه يا جرير وطالا

ووزنت فخرك يا جرير وفخره
فخففت عنه حين قلت وقالا

الزنج لو لاقيتهم فى صفهم
لاقيت ثم جحاجحا أبطالا(١٦٧)

ومنها :

ما بال كلب من كليب سبنا
ان لم يوازن حاجبا وعقالا(١٦٨)

---

(١٦٦) فى رسائل الجاحظ ١/١٩٠ « سفيح بن رباح . وفى الكامل ٢/٢٩٥ رباح بن سفيح الزنجى مولى بنى ناجية .

(١٦٧) الامالى الشجرية ١/١٩٤ ، رسائل الحافظ ، ١/١٩٠ - ١٩١ الكامل ٢/٢٩٥ .

(١٦٨) اشارة الى قول الاخطل :

منتك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازن حاجبا وعقالا

رسائل الجاحظ ١/١٩٠ - ١٩١ هامش ٦ .

ان امرءا جعل المراغة وابنها
مثل الفرزدق جائر قد قالا(١٦٩)

فوصف الفرزدق فيها بالقوة والعلو بحيث لا يستطيع الآخرون ، ويعنى بذلك جريرا ورهطه ، أن ينالوا منه . واذا كان البيت الأول يومىء الى قول القائل (أعشى قيس) :

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يضرها ، وأوهى قرنه الوعل(١٧٠)

فهو يعنى أن جريرا فى خصومته للفرزدق لا يجنى غير الحسرات، ثم قال بتفضيل شعر الفرزدق ، عند المقايسة ، على شعر جرير ، وهو تفضيل عام ، لم يشر فيه الى غرض معين . واستطرد فى البيت الثالث، فأعلن رجحان فخر الفرزدق على فخر جرير فى الميزان ، فمن يساوى بين الفرزدق وجرير فهو ، اذن ، جائر فى حكمه ، مجانب للسداد والحق ، ومما يؤكد رواية غضب الزنج من قول جرير السالف الذكر . ما جاء فى قصيدة سفح دفع تعداد جماعة من أشراف العرب ممن ولدتهم الزنج(١٧١) .

والزنج لو لاقيتهم فى صفهم لاقيت ثم جحاجحا أبطالا

ويبدو أن جريرا ، قليل الحذر فيما يتصل بشتم الآخرين ممن لم يسيئوا اليه ولدينا شاهدا آخر آثار به الموالى حين قال هاجيا بنى مالك بن طريف من بنى العنبر ابن تميم :

---

(١٦٩) قال : أخطأ رأيه وضعف .
(١٧٠) ديوان الأعشى ص ١٤٨ .
(١٧١) رسائل الجاحظ ١/ ١٩٩ .

يا مالك بن طريف ان بيعكم
رفد القرى مذهب للدين والحسب

قالوا نبيعكه بيعا فقلت لهم
بيعوا الموالى واستحيوا من العرب(١٧٢)

ورأى الاساءة اليهم غير محسوبة عيبا(١٧٣) فسفيح ، اذن ، موتور ، وهو لذلك غير محايد فى حكمه بتفضيل الفرزدق على جرير :

وقال عمر بن لجأ التيمى يقضى للفرزدق على جرير ولبنى دارم على بنى يربوع

لما رأيت ابن ليلى عند غايته
في كفه قصبات السبق والخطر

هبت الفرزدق واستعفيتني جزعا
للموت تعمد والموت الذى تذر

ان قال يوما جرير ان لى نفرا
من صالح الناس ما سأله من النفر ؟

أمعرض أم معيد أم بنو الخطفى
تلك الأحاديث ، ما طابوا ولا كثروا(١٧٤)

وتفضيله الفرزدق ، هنا ، عام ، ولكن قوله فى البيت الثانى :

---

(١٧٢) الكامل ٢/٥٩ .

(١٧٣) المصدر السابق ٢/٦١ .

(١٧٤) نقائض جرير والفرزدق ١/٤٨٩ ومعيد جد جريرا أبو أمه ، ومعرض من أخوال جرير وكان معرض يحمق ، النقائض ١/٤٨٩ .

« هبت الفرزدق ... » بعد بلوغه غايته حائزا على قصبات السبق ، يشير الى تبريزه بالهجاء ، وربما بالفخر أيضا ولكن ابن لجـأ خصم لجرير ، تبدو خصومته فى قوله : « واستعفيتنى جزعا » فهـو لذلك حكم غير محايد حيث قال :

سبق الفرزدق بالمكارم والعـلا
وابن المراغة ينعت الأطلاطلا(١٧٥)

وقد سبق أن وقفنا على ما يمكن ان تعنيه : « المكارم والعلا » غير أن شيئا جديدا فى البيت وهو أن جريرا مفصول عنهما فى وصفه الأطلال . وتلك اشارة قد تومىء الى مطالع قصائد جـرير التقليدية ، وما تجره من النسيب بالاحبة الراحلين عن الديار ، تعويضا عن الفخر الذى يتغنى بالمكارم والعلا ، وهى من الاشارات القليلة ذوات الدلالة النقدية المهمة التى تبدو فى العصر الأموى وكأنهـا ارهاص أو فتحت الطريق لأبى نواس ليعلن هجومه المعروف على الوقوف على الأطلال ونعتهـا .

وفى هذه الاشارات ما يروى من أن ذا الرمـة قال للفرزدق : « مالى لا الحق بكم معاشر الفحول ؟ » فقـال له « لتجافيك عن المدح والهجاء ، واقتصارك على الرسوم والديار »(١٧٦) .

فان كان هذا صوابا فان الحضارة التى أخـذت تبنى أسسها فى العصرين الاسلامى والأموى بدأت تتغلب على أساليب الحياة البدوية غير المستقرة ، وما يعكسه هذا على تقاليد الشعر ، حتى اذا توطـدت

---

(١٧٥) المصدر السابق ١/٤٨٩ .
(١٧٦) الموشح ص ٢٧٤ .

حياة الاستقرار الحضارى فى العصر العباسى عبرت السمات الجديدة عن ذاتها فى شعر الشعراء وكانت مهاجمة أبى نواس الوقوف على الأطلال جزءا من صراع الحضارة للبداءة ، وتعبيرا عن سخرية الادب الحضارى من الطرز الأدبية البدوية البالية ، تلك التى تتمثل فى الوقوف على الأطلال ووصف الخرائب ورسوم الديار •

أما « اللعين » وهو منازل بن رفعة المنقرى ، فقد شتم فى حكمه الشاعرين : الفرزدق وجرير وأضاف اليهما البعيث فقال :

سأحكم بين كلب بنى كليب
وبين القين قين بنى عقال

فان الكلب مطعمه خبيث
وان القين يعمل فى سفال

وقد حسر البعيث وأقعدته
لئيمات المناخر والسبال

ويترك جده الخطفى جرير
وتندب حاجبا وبنى عقال(١٧٧)

قال ابن سلام : « وسمعت يونس يقول : فلم يلتفتا لفتة ، واراد ان يذكراه فيرفعه ذلك فقال :

---

(١٧٧) طبقات فحول الشعراء ١/٤٠٢ ، الشعر والشعراء ١/٤٠٧، الخزانة ٣/٢٠٨ ومن الشعر والشعراء والمبرد فى الاعتنان ، أو فى الحيوان ١/٢٥٦ بعد البيتين الأول والثانى :

كلا العبدين قد علمت معد — لئيم الأصل من عم وخال
فما بقيا على تركتمانى — ولكن خفتما صرد النبال

فمـا بقيـا عـلى تركتمـانى
ولكن خفتمـا صرد النبـال(١٧٨)

وفي رواية الخزانة بعد هذا البيت •

فدونكما انظـرا : أهجـوت آم لا
فذوقـا فى المواطن من نبـالي

وما كان الفـرزدق غـير قبين
لئيـم خـالـه ، للـؤم تالى

ويترك جـده الخطفي جـرير
ويندب حاجبـا وبنى عقـال

فلم يلتفتا اليـه فقط(١٧٩) •

ولا أظن أن مهاجمة الشاعرين اجتماعيا أو خلقيا لا أدبيا تحتاج الى تعليق فقد مر بالقارىء شيء مثل هذا فيما مر من شتم الآخرين •

وآخيرا نذكر مروان بن أبي حفصـة الذى ظهـر في العصرين الأموى والعباسي ونال شهرة وحظوة بتأييده ذوى السلطان وذمـه خصومهم ومعارضيهم •• وحكمـه بيين لنـا أن الضجة التي أثارتها خصومة الشعراء الثلاثة الأخطـل وجـرير والفرزدق ، امتدت أمـدا طـويلا •

ولم تهدأ أو يخفت الجدل حولها بهلاكهم فى أيام الأمويين وانما

---

(١٧٨) طبقات فحول الشعراء ١/٤٠٢ ـ ٤٠٣ وصرد النبال : وقعها فيكم •

(١٧٩) الخزانة ١/٢٠٨ •

استمرت خلال أعوام طويلة فى العصر العباسى الأول ، يقول مروان:

ذهب الفرزدق بالفخار وانما
حلو الكلام ومره لجرير

ولقد هجا وأمعن أخطل تغلب
وحوى اللها ببيانه المشهور

كل الثلاثة قد أبر بمدحه
وهجاؤه قد سار كل مسير(١٨٠)

ومن ينظر فى هذه الأبيات لا يخرج بشىء جديد ، فلا تكشف عن وجهة نظر نقدية غير ما ألفناه مما استشهدنا بأحكامهم ، آنفا ، فالفرزدق مبرز فى الفخر أما جرير فله المديح والهجاء ، اذا ترجمنا حلو الكلام بالمديح أو لعله يريد الغزل ولكن مقابلة حلو الكلام لمره ترجح ان المراد هو المديح فى مقابل الهجاء . ولكن الأخطل عنده مبرز، أيضا فى الهجاء المحض والمديح الذى أثيب عليه بالجوائز السنية ، (وجوائز الملوك عند مروان دليل تقدير للشاعرية) . ثم يعلن فى البيت الثالث ان الثلاثة جميعا قد أجادوا المديح ، وان هجاءهم سائر فى كل وجهة ، وان سيرورة الشعر دليل جودته ورواجه .

واذا أردنا أن نجرى الى نتيجة الحساب نجد انه جعل الفرزدق يبرز فى الفخر والمديح والهجاء وجرير والأخطل فى المديح والهجاء حسب ، ولكنا نظن أن الدقة فى الحساب ليست فى حساب مروان

---

(١٨٠) طبقات فحول الشعراء ١/٣٧٧ ، نور القبس ص ١٨٥ ، طبقات الشعراء لابن المعترض ص ٤٦ .

ابن أبى حفصة(١٨١) ، وكان غرضه الأول اطراء الشعراء الثلاثة وأن يجد مدخلا الى اطراء شعره وشاعريته ، فهو يقول :

ولقد جريت مع الجيـاد ففتهـا
بعنـان لا شـيم ولا مبهـور

ما نالت الشـعراء من مستخلف
ما نلت من جـاه وأخـذ يدور

عزت معا عنـد الملوك مقـالتى
ما قال حيهـم مـع المقبـور

ولقـد حبيت بألف ألـف تثبت
الا بسـبب خليفـة وأمـير

ما زلت آنف أن أؤلـف مدحـه
الا لصـاحب منبـر وسـرير

ما ضرنى حسـد اللئـام ولم يزل
ذو الفضل يحسده ذوو التقصـير

فاذا هـدرت مع القروم محاضرا
فى موطن ففتح القروم هديرى(١٨٢)

فالبدور التى نالها من الملوك والأمراء ، وحباؤهم الضخم لـه ، وترفعه عن مديح غيرهم دليله على قوة شاعريته ، وجودة شـعره ، وتاريخ الأدب يذكر أن ذلك الحباء لم يكن الا لأنه يؤيد حق السلطان ،

---

(١٨١) الموشح ص ١٩٢ .

(١٨٢) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٦ ـ ٤٧ الاغانى ٩/١٠ .

وبناك من خصومه وهو لذلك ، حباه معياره الأول التأييد السياسى لا الاجادة الفنية ، وهذا أيضا ما يجعله يعلو الآخرين فى التقدير مما جاء به بيته الأخير • ولكن البيت قبل الأخير ، يشير الى متنقصين جعلهم لئاما ، ورماهم بالحسد ، ولو وقفنا على تنقصهم أو ندهم شعره لوافقناه على نبذهم بالحسد أو اختلفنا معه فى هذا الشأن •

ونخرج مما عرضنا فى أمر الفصل بين الشاعرين الى أن الشعراء مختلفون فى التفضيل بسبب معايير ليست أكثرها فنية ، وقد صدق أبو عبيدة فى قوله : « ان الناس يختلفون فيهما وانما يتكلمون بالأهواء » ولكنه يقول : « أما الرواة فيقولون الفرزدق أشعرهما وأما الشعراء فيقولون جرير أشعرهم » •

ونقف عند هذا فى أمر الحكم بين الخصوم والمفاضلة بين الشعراء لنتعرف الأهداف التى من أجلها سيق هذا الشعر والهدف الذى من أجله تفاضل الشعراء •

هذا وبالله التوفيق ،